اقرأ

الدكتور مراد كامل

في بلاد النجاشي

دار المعارف بمصر

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة د/ عبد الرحمن بدوي

جمعية د /عبد الرحمن بدوي للإبداع الثقافي

القاهرة

فِي بِلادِ النَّجاشِي

الدكتور مراد كامل

في بلاد النجاشي

اقرأ ٨١
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٨١ — أغسطس سنة ١٩٤٩



فى بلاد النجاشى

كنت فى شوق إلى زيارة تلك البلاد التى كان تاريخها وأدبها ولغاتها موضع درسى فى مصر وألمانيا . وكنت أجدنى مع هذه الزورة مفيداً كثيراً فى استجلاء غامض وتوضيح مبهم مما عرض لى فى درسى ولم أملك له بياناً .

وما أن اخترت لأرأس بعثة المدرسين إلى الحبشة — لتخلق لها منهجاً تعليمياً وتنشىء فيها معاهد — حتى ارتاحت نفسى ووجدت الفرصة قد وافت . وكان علينا بعد ذلك أن نختار واحدة من ثلاثة تنقلنا سالمين إلى أرض النجاشى .

أما أولى الثلاثة فكانت طائرة حربية بريطانية ودون هذه أمور ، فعسير أن نجد لنا فيها أمكنة جملة . فبيننا من المدرسين من هو فى أسرة تربى على الخمسة ، ثم نحن مزودون بصناديق جمعت الكثير من المأكولات أحصيت منها المائتين . ومثل هذه القافلة بما تحمل بعيد أن تتسع لها الطائرة أيام السلم فكيف بها مع الحرب ووظيفتها لها .

والثانية القطار ، وهو يغادر القاهرة مرتين كل أسبوع إلى أسمرا ، مارا بكسلا ومنها إلى أجوردات ثم إلى أسمرا ، تقضى فى تلك الرحلة أياماً سبعة . وإذا انتهيت إلى أسمرا وجدت السيارات معدة لتصل بك إلى أديس أبابا . والمسافة بين أسمرا وأديس أبابا ١١٠٠ كيلومتر تقطعها السيارات فى نحو ثلاثة أيام . ولم تكن تلك الطريق مؤمنة فى تلك الأيام كما لم يكن أمر السيارات شيئاً مؤكداً .

لذلك كان لزاماً علينا أن نُحمل على الثالثة ونركبها مضطرين لا مختارين ولم تكن الثالثة غير البحر . فلبثنا ننتظر باخرة تقلنا إلى چيبوتى فى أيام كانت البحرية البريطانية تهيمن على البواخر كافة . وفى چيبوتى ينتظر المسافر القطار الذى يبرحها إلى أديس أبابا ثلاث مرات كل أسبوع قاطعاً نحواً من ٧٩٩ كيلومتر فيما يقرب من أيام ثلاثة .

ويكاد القارىء يلحظ أن هذه الطرق الثلاثة لاتضمن لبلاد تجارية كالحبشة صلة سهلة ميسورة بغيرها من البلدان الأخرى ، بل إن فيها تعويقاً لتجارتها وتضييقاً لمغانم شتى .

وهذا ما حفز الحكومة الأثيوبية إلى أن تطلب عون الدول

ذات الشأن للتغلب على تلك الصعاب . فرأيناها تسعى سعيها لدى حكومة الصومال الفرنسي لتمكين الخط الحديدى وتيسير أجور النقل ، كما رأيناها تجد فى استيراد سيارات للشحن كبيرة تجرى بين أديس أبابا وأسمرا ومنها إلى مصوع وبخاصة بعد أن أصبحت السيارات التى أحضرها الطليان لا تفى بالغرض المطلوب لسوء حالها . وكذلك رأينا لها جدا فى إصلاح الطريق القديم الذى يربط الحبشة بأعالى السودان ثم مصر . وهذا الطريق لايعوق المرور فيه إلا الأمطار التى تملؤه مع كل موسم ، وهو يصل ما بين أديس أبابا وجمبّلا التى تبعد نحواً من ٧٠٠ كيلومتر عن أديس أبابا والتى هى على الحدود السودانية . ومن جمبلا تمخر عباب نهر السوباط فالنيل الأبيض إلى الخرطوم . ويشق هذا الطريق أغنى أقاليم الحبشة خصباً مثل أقليم الأروسى وكافا وولجا ، وهى أقاليم الحبوب والبن والأخشاب ، ويقطعه المسافر فى أسابيع ثلاثة ، وما من خوف على ما ينقل فيه من سلع فهى مما لا يضيره الزمن وبعد الشقة ، غير أنه لو أتيح لهذه الأقاليم أن تنقل منتجاتها إلى الخارج عن غير طريق أديس أبابا لأفادت كثيراً ونمت

تجارتها نموا واسعاً .

وللحكومة الأتيوبية فكرة فى مد خط حديدى يصل بين أديس أبابا والسودان ، وهذا إذا كتب له النجاز فإنه يهيئ فرصة نافذة لتبادل التجارة .

وقد بذل الطليان جهداً أيام احتلالهم للحبشة فى تحسين طرق الاتصال ، إذ أن وحدة الحبشة السياسية واستغلال مواردها والتوغل فى أنحائها كل هذا مرهون بإنشاء شبكة من الطرق، ودون هذا مال وجهد لا تقوى لهما الحكومة الأتيوبية وحدها .

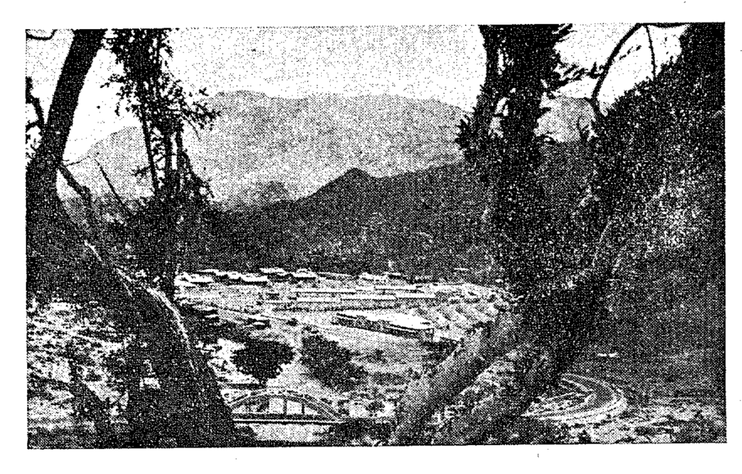
أريتريا

أبحرت الباخرة بنا من السويس تشق البحر الأحمر حتى أشرفت على سواحل أريتريا وهى من المستعمرات التى فقدتها إيطاليا فى الحرب الأخيرة ، حتى إذا أشرفت بنا على مصوع هاجنى الشوق إلى بلاد تربطنى بها كمصرى علاقات سياسية وثقافية وتاريخية . بلاد تجاور بلادنا بل تتاخم حدودنا وقل منّا من يعيرها اهتماماً . أرست الباخرة فى هدوء على هذا الميناء الكبير وأخذت الذاكرة تستعيد ما وعته من هذا التاريخ فى صمت وسكون حيناً وفى ثورة صاخبة حيناً ، وكانت هذه أولى زوراتى لتلك البلاد . غير أنى ما وطئت أرضها حتى علقت بنفسى ورحلت إليها مرة بعد مرة أشبع رغبة وأطفئ غلة . ومرت عصور تاريخ أريتريا أمام عينى وأنا أحدق النظر إلى أرضها من فوق الباخرة :

ذكرت تلك الصلات التجارية بين مصر الفرعونية وأريتريا والتى خلفت جاليات مصرية على سواحل أريتريا قبل عصر البطالسة ، ثم

كيف ازدادت هذه الصلات فى عصر البطالسة . وقد كانت أظهر الموانى فى تلك العصور ميناء « عدول » التى تقع أطلالها الآن جنوبى « مصوع » . ثم أخذت فى الاضمحلال بعد هجرة العرب إليها فى القرنين الأول والثانى للهجرة وكثيرا ما تغنى بها شعراء العرب فذكروا سفنها ورماحها .

وكانت عدول حلقة الاتصال بين تجار الحبشة والهند واليمن من جهة وتجار مصر من جهة أخرى . وظلت الجاليات المصرية فى أريتريا تحمل التجارة منها إلى مصر حتى القرون الأولى للميلاد ، إذ دخلت أريتريا تحت سلطان ملوك « أكسوم » الذين كانت بينهم وبين مصر صلات ودّ مكين . وقد حافظت أريتريا على استقلالها الداخلى تحت إشراف ولاة من قبل إمبراطور الحبشة ، كانوا يستقلون بها بين حين وآخر كلما وجدوا فرصة مواتية . وقد كان مظهر التنافس القائم بين الدول الكبرى لبسط سلطانها على البحر الأحمر يتجلى فى أريتريا . ففى القرن السادس عشر الميلادى استولى المصريون أيام الحكم التركى على بعض موانىء ومناطق فى أريتريا وظلت فى يدهم إلى عهد قريب .



قرية فى أريتريا

وفى عام ١٨٧٢ استولت مصر على منطقة « كيرين » .

هذا ودونك عرضاً سريعاً فى صورة « شريط سينمائى » عن أهم الحوادث والتطورات التى وقعت فى أريتريا منذ عام ١٨٦٥ .

فى عام ١٨٦٥ أراد الخديوى إسماعيل أن يربط ميناء « مصوع » بالنيل بخط حديدى بعد أن نزل له السلطان عن ميناءى سواكن ومصوع فى تلك السنة .

وفى عام ١٨٦٩ ازداد تسابق الدول الكبرى وهى بريطانيا وفرنسا وإيطاليا بعد فتح قناة السويس فى الحصول على مناطق نفوذ فى البحر الأحمر . وقد تمكنت إحدى شركات الملاحة الإيطالية من شراء منطقة فى خليج « عصب » بمال قليل من سلطانها الذى كان تابعاً للحكم المصرى . وطعن الخديوى إسماعيل فى صحة البيع ، وطالب بريطانيا بإخلاء الجزر حتى لا تمعن الدول فى الجرى على هذه السنة .

وفى عام ١٨٧٠ احتجت مصر على إيطاليا لهذا التصرف ، وأرسلت حملة إلى سلطان « عصب » ولكن الحملة لم تتمكن من النزول فاضطرت إلى العودة .

وفى عام ١٨٧٢ استولت مصر على منطقة «كبرين» و «بوجوس» وظلت فى يدها إلى أن اضطرت إلى سحب قواتها عام ١٨٨٤ بعد قيام ثورة المهدى .

وفى عام ١٨٧٩ احتل الطليان خليج «عصب» احتلالا عسكرياً .

وفى عام ١٨٨١ هاجم الدناكل بعثة إيطالية كانت راجعة من الحبشة فاحتجت وزارة الخارجية الإيطالية بالاتفاق مع جلادستون على الحكومة المصرية باعتبارها مسئولة سياسياً ، وطلبت منها إجراء تحقيق فى الحادث .

وفى عام ١٨٨٢ كان رد الطليان على احتجاج الحكومة المصرية فى مسألة «عصب» صدور مرسوم فى هذه السنة بضم «عصب» إلى المستعمرات الإيطالية التابعة للتاج .

وفى عام ١٨٨٥ استولى الطليان على ميناء «بيلول» بعد موافقة بريطانيا ، ثم أنزلوا أول فرقة إيطالية فى «مصوع» واغتصبوها من الحامية المصرية وأنزلوا العلم المصرى وأجبروا الحامية المصرية على الجلاء ، ثم احتلوا المدينة مدنياً بعد أن احتلوها عسكرياً . وقد وصل خبر هذا الاحتلال من محافظ

« مصوع » بطريق « سواكن » إلى الحكومة المصرية ، فقررت الاحتجاج ، وأبلغ الجناب العالى فى مصر الذات الشاهانية فى الآستانة الخبر ، وكانت الدولة العلية فى شغل شاغل بالبلقان ، وكانت انجلترا عاكفة على الانتخابات ، فلم تحتج الدول على هذا احتجاجاً رسميا ، إلا أن ذلك زاد من أعداء إيطاليا فى أوربا .

وفى عام ١٨٨٧ هاجم الرأس (ألولا) حصن « سحاتى » وقامت معركة دوجالى ، وحررت المناطق التى كان الطليان قد احتلوها من « سحاتى » إلى « مصوع » ثم عادت إيطاليا فأعلنت الحماية على « حباب» واستردت « سحاتى »فخضع لها عدد من القبائل .

وفى عام ١٨٨٨ أعلنت إيطاليا حمايتها على قبيلة بنى عامر .

وفى عام ١٨٨٩ احتل الطليان « كيرين » ثم « أسمرا » التى كانت تحت حكم الحبشة ، ثم استولوا على معظم أريتريا الحالية ، فاضطرت الحبشة فى شهر مايو من هذه السنة إلى عقد معاهدة « أوتشالى » معترفة بسلطان إيطاليا على المناطق التى فى شمال خط « أرافالى » — هالاى — ساجانيتى — أسمرا — أتص يوحانس » .

وفى عام ١٨٩٠ استمر الطليان فى سياسة التوسع ، وتمكنوا من عقد معاهدة مع سلطان « الأوسا » حملوه فيها على الاعتراف بحماية إيطاليا على الدناكل وهى المنطقة التى تمر فيها التجارة بين مقاطعة « شوا » وميناء «عصب » ثم احتلوا منطقة « عدوا ».

وصدر حينذاك مرسوم من ملك إيطاليا بتوحيد جميع الممتلكات الإيطالية على سواحل البحر الأحمر وضمها فى مستعمرة واحدة تحمل أسم أريتريا، نسبة إلى بحر أريتريا وهى التسمية اليونانية للبحر الأحمر (وكلمة أرتروس باليونانية معناها الأحمر) .

وفى شهر يونيه من هذه السنة هاجم الدراويش « أجوردات» واستولوا عليها وحصنوها .

وفى عام ١٨٩١ فى شهر مارس من هذه السنة حددت مناطق النفوذ بين إيطاليا وبريطانيا فى أفريقيا الشرقية . واضطر الطليان رأس (منجشا) وبعض رؤساء قبائل « التيجرى » إلى الاعتراف لإيطاليا بالمناطق التى فى شمال خط « مارب — بيليسا — مونا » .

وفى عام ١٨٩٣ انهزم الدراويش فى « أجوردات » .

وفى عام ١٨٩٤ احتل الطليان مدينة «كسلا » ثم انسحب

منها الدراويش إلى ما وراء العطبرة . وهزم الطليان جيش القائد الحبشى (باتا أجوس) .

وفى عام ١٨٩٦ انتصر الأحباش على الطليان فى معركة « عدوا » ، واضطرت إيطاليا أن تعترف لأتيوبيا باستقلالها . ولكن الطليان تمكنوا بعد ذلك من الاستيلاء على « عد يجرات » ومن ثم على « كسلا » ، إلا أن الأمر صدر من روما : « آنقلبوا إلى منازلكم » أى إلى أريتريا .

وفى عام ١٨٩٧ استرد الجيش المصرى « كسلا » من يد الطليان وحولت إيطاليا حكومة أريتريا من عسكرية إلى مدنية لاستغلالها .

فى ديسمبر من عام ١٨٩٨ اتفق على الحدود بين أريتريا والسودان .

وفى عام ١٩٠٠ عقدت إيطاليا معاهدة مع الحبشة لتثبيت الحدود بين أريتريا والحبشة .

وفى عام ١٩٠١ تم بروتوكول الاتفاق على الحدود بين أريتريا والصومال الفرنسى .

وفى عام ١٩٠٢ اضطرت إيطاليا الحبشة إلى النزول عن

منطقة قبائل « الكوناما » وضمها إلى أريتريا ، وقد وافقت بريطانيا على هذا .

وفى عام ١٩٠٣ اتفقت أريتريا مع السودان على إدخال تعديلات يسيرة فى الحدود .

وفى عام ١٩٠٨ وقع اتفاق بين أريتريا والحبشة لتحديد مسافة ستين كيلومترا بين الشاطىء وبين حدود الحبشة ، وهى منطقة « الدناكل» التابعة لأريتريا .

وفى عام ١٩١٥ أبرمت معاهدة سرية فى لندن بين فرنسا وبريطانيا وروسيا ، هذا نص المادة ١٣ منها : « إذا اتسعت أملاك فرنسا وبريطانيا فى أفريقيا على حساب المستعمرات الألمانية ، فإن فرنسا وبريطانيا ستتساهلان فى توسع إيطاليا فى أريتريا والصومال وليبيا وفى المناطق المتطرفة من المستعمرات الفرنسية والبريطانية على سبيل التعويض » . هذا هو النص كما نشره الطليان ، إلا أن الفرنسيين أذاعوه بشكل مختلف هو هذا : « إذا وسعت فرنسا وبريطانيا ممتلكاتهما الاستعمارية فى أفريقيا على حساب ألمانيا تعترف هاتان الدولتان بحق إيطاليا فى المطالبة ببعض تعويضات فيما يتعلق بالتوسع فى حدود أريتريا والصومال

وليبيا والمستعمرات الفرنسية أو البريطانية المجاورة » . ومما يلاحظ أن هذه المعاهدة التى تتمسك بها إيطاليا يجب أن تسقط من الحساب ؛ إذ أن فرنسا وبريطانيا لا تملكان حق التصرف فيما عهد إليهما الإشراف عليه . أضف إلى هذا أن روسياتخلت عن تلك المعاهدة ، وأن دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى قد غير من سير هذه الحرب .

وفى عام ١٩١٦ اعترف مؤتمر نابلى لشؤون المستعمرات لإيطاليا بحدود أريتريا الطبيعية على العطبرة ، وضمن الصلات التجارية بين أريتريا وسواحل البحر الأحمر .

وفى عام ١٩١٩ عقد مؤتمر روما ، ولم يكن الغرض منه الأتفاق على جدود أريتريا بل كان هدفه تثبيت ملكية الصومال الفرنسى والصومال البريطانى ، وكان من نتيجته أن أحيطت الحبشة من جميع الجهات .

وفى عام ١٩٣٥ كانت أريتريا الباب الذى تدفقت منه المعدات والقوات لغزو الحبشة .

وفى عام ١٩٤١ استولى الحلفاء على أريتريا .

.·.

هذا عرض لتاريخ يدلك على تهافت الدول على هذا البلد الذى يعتبر قلب البحر الأحمر وطريق التجارة بين الحبشة والعالم الخارجى . وقد أظهرت الدول العظمى أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها اهتماماً كبيراً بأريتريا ، وكان هذا الاهتمام قد هدأ بعض الشىء فى الفترة بين الحربين . ولكن هذا الاهتمام من شأنه أن يثير فى نفس المسافر إلى أريتريا روح التطلع وقوة الانتباه إلى ما يجرى هناك حتى يفهم الباعث إليه .

أعطى البطالسة للعالم القديم معلومات جغرافية عن سواحل أفريقيا الشرقية ، ولكن بعد الشقة جعل من هذه السواحل أرضاً خرافية . ثم ظهر الإسلام فحجز بين الحبشة المسيحية والعالم مما جعل الأوروبيين يؤلفون أسطورة « القسيس يوحنا » الملك المسيحى الذى يحكم على السود . ولكن الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية من فرنسيسكان ويسوعيين وأكثرهم من البرتغال دخلوا أريتريا منذ القرن الرابع عشر ، فاضطرت الحبشة وأريتريا إلى إغلاق حدودهما منذ القرن السابع عشر فى أوجه المبشرين ، غير أن الرحالة الاسكتلندى « بروس » فى القرن الثامن عشر ، شجع ودخل الحبشة . ومن ثم تتابعت الإرساليات

الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والسويدية .

كل هذا حدث تحت سمع المصريين وبصرهم ، وهم الذين لم تنقطع علاقاتهم بأريتريا منذ عهد الفراعنة ، بل ازدادت قوة فى العصور المسيحية وتوطدت فى العصور الإسلامية .

ويبلغ عدد سكان أريتريا ثلاثة أرباع المليون نسمة تقريباً ، تتساوى بينهم نسبة المسيحين والمسلمين . وأكثر المسلمين شافعية ومنهم قبائل الهدندوه وبنو عامر وهم بدو رعاة وحباب وبلين وساهو ودنا كل وعشائر أخرى ، يسكن معظهم القرى . وهناك الأريتريون المسيحيون ، وهم يقيمون فى المدن ويحترفون الزراعة ، وكذلك الوثنيون منهم كالباريا والكوناما . وهناك عناصر أخرى هاجرت إلى أريتريا فى عصور مختلفة منهم العرب والهنود والسودان والصومال واليونان .

أما الموانىء فهى أهم وسائل المواصلات من الوجهة الاقتصادية للتصدير والاستيراد ، تنتهى إليها السكك الحديدية أو الطرق البرية حاملة البضائع من داخل البلاد .

وقد اهتمت إيطاليا قبل الحرب العالمية الثانية بأن تقرب بين أريتريا وإيطاليا بخطوط الملاحة وأرصفة الشحن والتفريغ

وتنظيم البريد والمواصلات التلغرافية والراديو . ذلك لأنها أدركت أن سهولة المواصلات تساعد على إنماء الثروة الفردية والثروة العامة ، وهذا من شأنه أن يخلق جوا صالحاً لسكنى الأوربى فى المستعمرات . واهتمام الطليان بالتقريب بين أريتريا وإيطاليا بشتى الطرق جعل أهل أريتريا يحسون صلتهم الدائمة بإيطاليا .

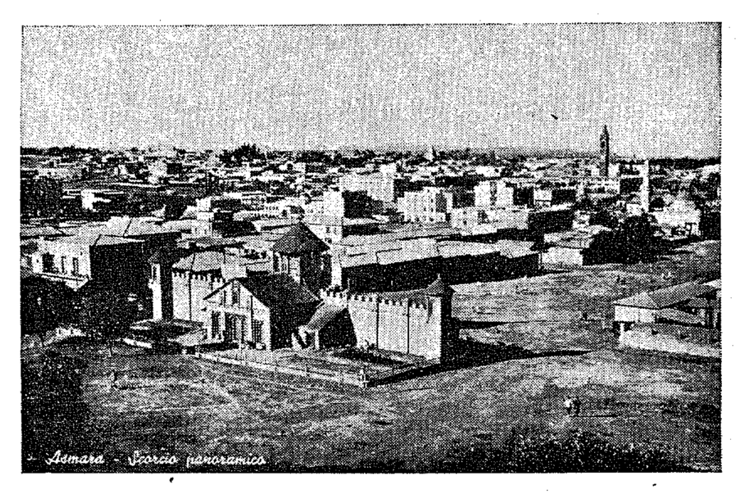
وفى أريتريا خط حديدى واحد يصل ميناء «مصوع» بالعاصمة «أسمرا» ومنها إلى السودان فمصر . وقد برع الطليان فى مد شبكة من الطرق البرية لتسير فيها سيارات للمسافرين والبضائع ، أهمها طريق من ميناء مصوع إلى أديس أبابا ماراً بأسمرا ، وآخر من ميناء عصب إلى أديس أبابا ماراً بديسى . ولعل أغرب هذه الطرق الطريق الحديدى من ميناء « مصوع » إلى « أسمرا » وطولة ١٢٠ كيلو متراً ؛ إذ يصعد بك القطار من مصوع التى على مستوى البحر تاركاً وراءه حرارة ورطوبة لا تحتمل إلى أسمرا التى ترتفع حوالى ألفين وثلاثمائة متر فوق سطح البحر ببردها وجفافها فى نحو ثلاث ساعات فى طريق متعرج جميل .

وتتركز حركة أريتريا فى بعض مدن أهمها ميناء «مصوع». واسمها مشتق — ومعناه « مكان النـــداء » — من فعل

صَوَّعَ بلغة (التيجرى) أى « نادى » . وذلك لأن الواقف على الشاطىء يمكنه أن ينادى الواقف فى الجزيرة الموازية . وعدد سكان « مصوع » خمسة عشر ألف نسمة من الأريتريين ، وخمسة آلاف من الطليان أى إنهم ربع السكان تقريباً ، وهذا كثير . ويرجع ذلك إلى أن حركة التجارة مركزة تقريباً فى مصوع ، وخاصة بعد أن وسع الطليان أرصفة الميناء وأقاموا عليها رافعات كبيرة قبل غزوهم للحبشة ، لتسهيل إنزال المواد الحربية الثقيلة .

ويقاسى الأجانب كثيراً من جو مصوع ؛ فهى من أشد بلاد العالم حرارة . وفيها يستخرج الملح . وقد أدى صيد الأسماك هناك إلى قيام صناعات كبيرة . ومصوع أوسع وأهم ميناء فى البحر الأحمر ، تجتمع فيها تجارة الهند والحبشة وأوربا . وكان الطليان يسمونها « باب الأمبراطورية » .

وهناك ميناء « عصب » وبها سبعة آلاف أريترى وثمانمائة إيطالى . وهى أول مراكز الاحتلال الإيطالى . وتبعد ٣٨ ميلا عن ساحل بلاد العرب . وفرق بينها وبين « مصوع » فالحركة فيها إلى حركة مصوع كواحد إلى أربعين . وقد فكر الطليان



أسمرا

فى مد خط حديدى يربط أديس أبابا بعصب عن طريق « ديسى » ، ولكن هذا المشروع لم ينفذ . وتعتبر « عصب » الميناء الطبيعية للحبشة على قدر « مصوع » و « جيبوتى » . ولكن وجود الخط الحديدى بين أديس أبابا وجيبوتى كان سبباً فى ضعف ميناء « عصب » . ومع ذلك احتفظت بأهميتها فى الاتجار مع اليمن ، فهى ميناء للمراكب الشراعية . بها حى قديم معظم سكانه من « الدناكل » ، أما الحى الجديد فيسكنه العرب . وفى عصب ملاحات كبيرة . وسيكون لعصب مستقبل تجارى لقربها من بلاد العرب ومن « عدن » ومن منطقة « الأوسا » ومنطقة « الوللو جالا » .

أما أسمرا فهى عاصمة صغيرة ، جوها جميل معتدل جاف يميل إلى البرودة طوال السنة ، ومبانيها متناسقة جديدة . ومعنى اسمها : « الغابة المزهرة » لنضرتها وكثرة زهورها . وحقاً إنى ما كنت أتوقع أن أرى فى تلك البقعة من بقاع العالم مدينة تشبه فى تخطيطها ومبانيها أحدث المدن الأوروبية . وبها حىّ للأوربيين وآخر لأهالى البلاد . ويندر أن ترى أحد الأهالى فى الحى الأوربى ما عدا الخدم . وعدد سكانها ٥٣,٠٠٠ إيطالى

و ٤٥,٠٠٠ أريترى ، وهى تقع على ارتفاع ٢٣٤٧ متراً فوق سطح البحر .

أما مدينة « كيرين » فبها تسعة آلاف أريترى وسبعمائة إيطالى ، وكانت حصناً مصريا ، ترتفع فوق سطح البحر قرابة ١٤٠٠ متر تسكنها قبائل البوجوس والبلين ، وتقع وسط منطقة خصبة تنتج البن والصبار والدخان والموز والحبوب ، وكانت ملتقى قوافل السودان من « كسلا » إلى « مصوع » . إلا أن إنشاء الخط الحديدى من « الخرطوم » إلى سواكن أفقدها قيمتها الاقتصادية ، غير أنها حافظت على مركزها فيما يخص التجارة الداخلية .

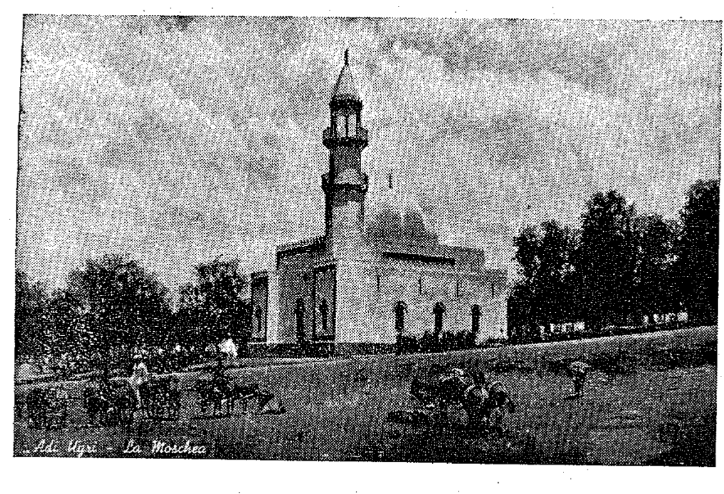
وهنالك مدينة ذات شأن وهى « ساجانيتى » بها ألفان من الأريتريين ويضع عشرات من الطليان ، وهى تقع على ارتفاع ٢٢٠٠ متر فوق سطح البحر ، وأهلها من الأرثوذكس ، ويقطن المنطقة الجبلية فيها مسلمون من قبيلة « الساهو » ، وهى وسط زراعى ، أرضها خصبة وجوها معتدل . وقد أطلق الأوربيون على هذه المنطقة « سويسرا أريتريا » واشتهرت « ساجانيتى » بتجارة الماشية التى تكثر وترعى فى تلك المنطقة

وهي تتوسط طريق النقل بين « التيجرى » و « أسمرا » .

وبجنب هذه المدن تجد مدناً أخرى صغيرة مثل « عدى أوجرى » و « أجوردات » و « عدى قابى » و « بارنتو » ؛ وكل منها مركز تجارى للقبائل المحيطة بها .

الثقافة :

يبهر المتنقل بين ربوع أريتريا ما قام به الطليان من أعمال إنشائية ومبان جميلة ومدن جديدة وطرق ممهدة . ولكن المتطلع إلى ما وراء ذلك يرى عجباً : يرى أمه أوربية قد استعمرت بلاداً طيلة نصف قرن دون أن تؤثر ثقافتها فى الشعب ، أو ترفع من مستوى المعيشة إلى الدرجة التى تناسب تلك المدة . فالثقافة الإيطالية لا تعدو كثيراً لغة إيطالية يتكلمها الناس لقضاء حاجاتهم . وقد يثير ضحكك وإعجابك عندما تسمع هؤلاء الناس وقد بسطوا اللغة تبسيطاً مخجلا ؛ فهم يعبرون مثلا ، فى تصريفهم الأفعال ، بضمائر الرفع المنفصلة مع إسنادها إلى المصدر فيقولون : « أنا ذهاب ، أنت ذهاب ، هو ذهاب الخ » . وقد سألت بعض الأريتريين عن السبب



مسجد فى عدى أو جرى

الذى من أجله لم يعلمهم الطليان ، فكان ردهم أن الطليان كانوا قد بدءوا فى تعليمهم ، ولكنهم وجدوا أكثر الذين يتعلمون من الأريتريين يهربون إلى إتيوبيا ويستقرون فيها ، فرأى الطليان أن المجهود الذى يبذلونه لتعليم الأريتريين يعود بالفائدة على إتيوبيا . كما لاحظ الطليان أن تعليم هؤلاء الناس ، يحيى فيهم النزعة القومية ، ويثير فيهم حب الاستقلال والرغبة فى التخلص من العبودية . وعلى هذا كف الطليان عن تعليمهم وقصروا جهودهم على قدر من التعليم يسمح باستغلال هؤلاء الناس لمصلحة إيطاليا فحسب ، سواء أكان ذلك من الناحية الاقتصادية أم من الناحية الدينية . وليس من السهل أن يصدق الإنسان هذا القول ، ولكنها الحقيقة الملموسة . فكأن هؤلاء الطليان فى مأدبة جمعت ألوان الطعام المختلفة الشهية فى قصر فخم يقف خارجه بعض الأطفال ، وهم يرمقون ألوان الطعام ، ويشتهون أن يتذوقوها وليس لهم إلى ذلك سبيل ، بل ربما لم تتحرك فيهم شهوة لأنهم لا يفقهون ما يرمقون .

سألت نفسى عن السبب الحقيقى فى تلك الظاهرة الغريبة ، فعللت ذلك بأن الإيطالى المستعمر لم يحاول أن يفهم الشعب

الأريترى ولم يقدّر أنه قد تأصلت فيه ثقافات مختلفة على مرّ الزمان ، فعامله معاملة الشعوب البدائية وقام بدعايته ممتهناً عقلية الشعب الأريترى ضارباً بشعوره وثقافته عرض الحائط ، بل قل لم يفهمها . من ذلك أنك تجد كتب المطالعة الأولية باللغة الإيطالية تحث على حب إيطاليا وتعظيمها ، وتجد رجال الدين من الكاثوليك يتوددون إلى الشعب بوضع صليب كبير فى الكنيسة عليه المسيح مصلوباً فى صورة رجل أسود وما إلى ذلك .

وأما الناحية الإجتماعية فقد نزل الإيطالى إلى ميدان الأعمال اليدوية ، فبعد أن كان الأريترى ينظر إلى الأوربى بعين الاحترام انقلب شعوره إلى الضد من هذا حين رأى الأوربى يقوم بتمهيد الطرق والبناء والحمل وجر العربات وغير ذلك . هذا ، وبالرغم من أن الحكومة الإيطالية كانت تحرم على الطليان الاختلاط بالأهالى فعمدت فى سياستها إلى تقسيم الأحياء والمناطق والمواصلات إلى قسمين : قسم للطليان وقسم للأريتريين ، فقد سقطت هذه القيود حين سقطت أرتيريا وأتيوبيا من يد الطليان ، وأصبحت ترى الأتيوبى أو الأريترى يستخدم الإيطالى.

وانقلبت طبقة المحكومين إلى طبقة حاكمين ، والحاكمين إلى محكومين بين عشية وضحاها ، والطليان راضون قانعون . بل أصبحت ترى أكثر من هذا ، ترى فئة من الطليان وقد تزوجوا من أتيوبيات أو أريتريات أو اتخذوا منهن خليلات ونزلوا إلى المستوى الذى يعيش فيه هؤلاء النساء فعاشوا عيشتهن وسكنوا مساكنهن . وقد كنت أذكر هذ الصديق لى من الفرنسيين ، فدهش وقال : إن هذه الحال وما يماثلها قد شاهدناها أيام كان الطليان وعرب شمال أفريقيا يعملون معاً فى فرنسا إبان الحرب العالمية الأولى ، بل قد أذهلنا أن نرى أهالى شمال أفريقيا من العرب يعنون بلباسهم ومسكنهم وتعليم أبنائهم على خلاف زملائهم الطليان الذين لم يوجهوا أى اهتمام إلى تعليم أبنائهم فضلا عن رفع مستوى معيشتهم . تلك ظواهر فى أخلاق هذا الشعب المستعمر جعلته يخفق فى حمل الثقافة والحضارة إلى الشعب الأريترى الذى يحفظ بين طياته ثقافة مصرية متمكنة ، تلك الثقافة التى جعلته يثبت أمام الجهود الثقافية التى ركزها الطليان فى الدعاية لحب إيطاليا أو التى ركزوها فى الدين منذ احتلالهم للبلاد ، والتى كان مظهرها الدعاية للمذهب الكاثوليكى .

وليس أدل على الإخفاق من عدد الذين قبلوا اعتناق الكاثوليكية من بين الأريتريين . وأما مظاهر المدنية التي تراها فى أريتريا فهى لصالح المستعمرين لاستغلال البلاد إلى أبعد حدود الاستغلال.

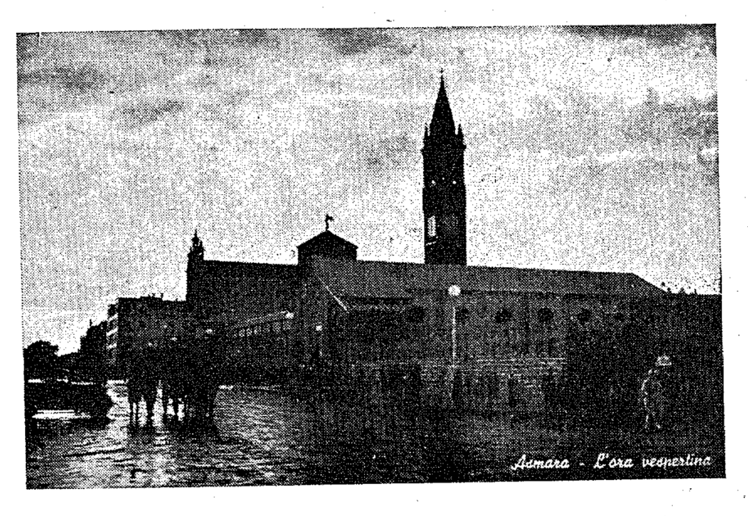
الدين :

دخلت المسيحية أريتريا على يد « فرومنتيوس » فى القرن الرابع الميلادى حين رست به السفينة فى ميناء عدول ، فأمكنه أن يدخل المسيحية فى المراكز التجارية أولا حيث يكثر الأجانب من مصريين ويونان نزحوا من مصر ، ثم عاد فرومنتيوس إلى مصر حيث رسمه البطريرك القبطى مطراناً على تلك الجهات (أى الحبشة) والمقصود بها أريتريا الحالية ومقاطعة التيجرى تقريباً . ويقيم المسيحيون فى أريتريا شعائرهم الدينية حسب طقوس الكنيسة القبطية . ويلاحظ فى القداس استعمال السيسترم والطبل . وهم يتبعون مطران الحبشة من الناحية الدينية ، وقد حاول الطليان أن يستقلوا بالكنيسة القبطية فى أريتريا ولكنهم أخفقوا فى ذلك ، إلا أنهم استطاعوا بعد أن استولوا على إتيوبيا أن يفصلوا الكنيسة الحبشية عن القبطية فى

ديسمبر عام ١٩٤٧ ، فعينوا بطريركاً حبشياً مركزه أديس أبابا ، فصارت أريتريا تابعة لهذا البطريرك ثم عادت الحال إلى ما كانت عليه بعد رجوع الإمبراطور إذ أصبح الرئيس الديني لأريتريا المطران القبطى الموجود فى أديس أبابا . غير أن التطورات الأخيرة بين الكنيستين القبطية والحبشية قد غيرت الموقف . فقد وافق المجمع المقدس فى مصر على أن يرسم على أتيوبيا مطران أتيوبى بعد موت المطران القبطى الحالى، ولم يتعرض القرار للصلة الدينية التى بين مصر وأريتريا. ويخيل إلى أن هذه المسألة لم توجه إليها العناية الحرية بها . ومما يُذكر بعد هذا أنه كان لأريتريا أسقف يرسم من الأقباط إلى عهد قريب ، وكان يساعده فى تأدية مهمته عدد من الرهبان الأقباط يحملون معهم ثقافتهم المصرية العربية ، وقد أخذ عدد هؤلاء الرهبان يتضاءل منذ الاحتلال الإيطالى لتلك البلاد إذ لاحظ الطليان خطرهم الثقافى . وقام الطليان ببناء أسقفية كاثوليكية كبيرة فى أسمرا محاولين بذلك منافسة المذهب الأرثوذكسى من جهة والتأثير فى الناس بالمظهر الخارجى للدين من جهة أخرى ، وقد ذكرنا أنهم أخفقوا فى ذلك .

ويبدو لى أنه قد حان الوقت الذى يجب أن ترسل فيه مصر إلى أريتريا أسقفاً مصرياً يكون تابعاً للبطريرك القبطى مباشرة أو للمطران الأثيوبى ، ويحسن أن يصحب هذا الأسقف عدد من الرهبان والقسوس المصريين المتعلمين ليكونوا يداً تساعد على استمرار الثقافة المصرية المتمكنة فى نفوس الأريتريين بل على إحيائها ، وخاصة بعد أن ثبت إخفاق الثقافة الإيطالية هناك .

وهناك تيار آخر حمل الثقافة المصرية إلى تلك البلاد . فقد قامت الدعوة للدين الأسلامى منذ ظهوره ، فاعتنقته القبائل التى تسكن شواطىء أريتريا ، ثم انتشر بين بعض القبائل الناطقة بلغة التيجرى وفى جزء من قبيلة البلين وفى معظم البجة وكذلك فى كل القبائل المتفرقة المسماة « جبرت » وقبيلتى الدناكل والساهو . ومسلمو أريتريا من السنّيين ، وهم على المذهب المالكى أو الشافعى . وهناك من الطرق الصوفية : الميرغنية ومركزها مصوع وكيرين ، والقادرية وهى منتشرة بين القبائل البدوية ، والسمانية فى جبرت ، وكذلك الأحمدية والصالحية ، وتقل الشاذلية والرفاعية والحدادية والتيجانية . وقد حمل المسلمون فى أريتريا ثقافة مصرية أتتهم عن طريق اختلاطهم



الكنيسة الكاثوليكية فى أسمرا

وكذلك عن طريق الأريتريين الذين يتعلمون فى رواق الجبرتى فى الأزهر ثم يعودون إلى بلادهم حيث ينظر إليهم بعين التقدير والتعظيم.

ولكن جهود مصر فى تنظيم هذه الثقافة التى استمرت طوال هذه الأجيال قد ضعفت أو هانت ؛ فطلبة رواق الجبرتى مثلا فى حاجة إلى تشجيع حتى يحملوا هذه الثقافة صادقة كاملة إلى مواطنيهم ؛ وإنك لتلمس استعدادهم فى هذا لمساً يدعو إلى الاطمئنان . وقد كان لإنشاء معهد فاروق الدينى الذى يقوم بالتعليم فيه مدرسون مصريون أثر طيب عند مسلمى أريتريا ، وحجر هام فى أساس علاقات مصر بأريتريا .

العادات :

يسترعى نظر المصرى فى تلك البلاد إما عادات غريبة عنه وإما عادات مماثلة لما ألفه ، وهى فى مثل الأوابد عند عرب الجاهلية وقد جعلوها بينهم أحكاماً وعادة ومداواة ودليلا وتفاؤلا وطيرة . فمما يستوقف النظر تسمية الأشهر العربية هكذا : رجب — مداجن — رمدان (أو صوم) — فطر أول — فطر ثانى — حج أول — حج ثانى — شفر — ربيع أول — ربيع

ثانى ــ جماد أول ــ جماد ثانى . وهم لايتزوجون فى رجب ومداجن ورمدان وشفر لأنها أشهر فردية ، وقد يسمح لمن أراد أن يتزوج على وجه السرعة فى هذه الأشهر على ألا يكون له إخوة . ولا يكون الزواج إلا فى الأشهر الزوجية وهى الأفاطر والحاجاج والأربعات وألأجمدات ، كما يسمونها .

والختان معروف عندهم ، فهو للذكور والإناث عند المسلمين والمسيحيين على السواء .

وترى الصبيان يحلقون شعورهم بعد أن يتركوا خصلة من الشعر إما فى وسط الرأس وإما على جانبيه وإما مثل عرف الديك أى من مقدم الرأس إلى آخره ، ولكل شكل منها آسم فى لغتهم ، وهذا يماثل ما نسميه فى مصر بالشوشة والقصة والزعرور وغيرها . ويحلق كذلك البنات شعورهن بعد ترك خصلة من الشعر على الرقبة أو على السوالف أو حول الرأس أو فى مقدم الرأس وفى آخره معاً ، وتعرف الأبكار بترك هالة من الشعر على رءوسهن بعد حلقه .

وللأريتريين معتقدات فى قوة الشّعر السحرية ، لذلك يجمعون شعرهم بعد قصه أو حلقه فيخفونه تحت شجرة أو فى

مكان أمين ، خوفاً من أن تذهب به الريح أو يطأه إنسان فيقف نمو الشعر أو يفقد صاحبه عقله « ينشعر » أو تتشتت أسرته كما تشتت شعره . ويعتقدون أن الحظ يأتى من الشعر فيقولون فى تعبيرهم : هذا شعره سعد وذاك شعره نحس .

وهم يحتفظون بأظافرهم بعد تقليمها فيدفنونها خوفاً من أن يسألوا عنها يوم الحشر .

وترى الطفل إذا سقطت سنّه أخذ قطعة من الصوان وقطعة من الفحم ورماهما مع السنة وهو يقول : أيتها الضبع ، خذى سنى الجميلة وأعطنى سنك القبيحة .

وهذا يذكرنا بما يقوله الأطفال فى مصر : «ياشمس ياشموسة ، خذى سنة العروسة ، وهات سنة الجموسة » . وقد كان العرب يعتقدون ما يشبه هذا فى جاهليتهم ، ويقولون إن الغلام إذا ثغر ، فرمى سنّة فى عين الشمس بسبابته وإبهامه وقال : أبدلينى أحسن منها . أمن على أسنانه العوج ، والفلج ، والثعل .

قال طرفة بن العبد :

بدّلته الشمس من منبته　　　　بردا أبيض مصقول الأشر

وللأريتريين فى مأكلهم عادات غريبة . لا يأكلون الأرنب

ولا قلب الحيوان ، ومنهم من يحرم أكل لسان الحيوان أو رئته آو معدته . ويختلف المسلمون والمسيحيون فى ذبح الحيوان ، فيوجه المسيحيون رأس الحيوان عند ذبحه صوب الجنوب كما يتوجهون فى صلاتهم ، ولايأكلون ذبيحة المسلمين كما لا يأكلون لحم الجمل أو الجراد . أما المسلمون فيوجهون رأس ذبائحهم جهة الشمال الشرقى ، أى جهة القبلة ، ولا يأكلون ذبيحة المسيحيين ولا لحم الخنزير .

وقد قلت لأحد فقهائهم : إن تحريم ذبيحة المسيحيين يخالف الشرع الإسلامى ، وإن الآية صريحة فى سورة المائدة (اليوم أحلّ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حلّ لهم) فقال : إننا نعد المسيحيين هنا مسلمين قد ارتدوا ؛ لذلك لا نخالف الشرع إذا لم نأكل ذبائحهم .

ويصنع الأريتريون خبزهم من الذرة أو القمح أو الشعير دون خميرة ، على الطريقة المعروفة عند البدو فى مصر ، فيعجنونه على قطعة ملساء من الحجر أو قطعة من الجلد أو الخشب . وهم يصنعون الخمر إما من الشهد وإما من الذرة أو الشعير. ولهم تقاليد معقدة فى حالات الموت ، فهم يندبون الراحل

بالطبل والرقص ويعددون صفاته . ويختلف المأتم باختلاف مقام الميت وسنه . وقد ذكر لى بعض الأريتريين أن الرعاة إذا مروا بالمقابر ألقوا عليها بعض الطعام واللبن على ثلاث دفعات ، وإذا مروا على مقابر أقاربهم حلبوا البقرة وألقوا ببعض لبنها على القبر ذاكرين اسم الراحل . ثم شرب الأطفال ما تبقى من اللبن . وهم يكررون حلب البقر على قدر عدد الراحلين ذاكرين فى كل مرة اسم الراحل . ولست فى حاجة هنا إلى أن أبين مدى اعتقاد الأريتريين فى الأحجبة والسحر والسحرة .

ومما يلفت النظر هناك أسماء الناس ، فلكل اسم معنى ، وتغلب على الاسم صيغة الجملة فتسمع بين أسماء الأعلام المذكرة : « حوار شيك » أى حمار الشيخ ، و « اتجاوها » أى أتى فى الفجر ، و « هامرا باى » أى أضعف الأعداء ، و « هارابا » أى أطعم الغريب ، و « جمبب » أى غطى الأم ، و « هاداما » أى هرّب الأعداء ، و « بذيهو » أى لقى .

ومن بين الأعلام المؤنثة « أرهبت » أى أراحت ، و « قبربا » أى سعيدة . وقد ذكروا لى أن الأم تطلق عادة على كل من

أولادها اسما ثانياً يكون صفة .

والشعب الأريترى على اختلاف قبائله فيه أمانة معروفة ، وتقوى فى العبادة ، وهدوء فى الطبع ، وصدق فى المعاملة ، وإخلاص فى العمل . وأشكالهم فى جملتها لطيفة : وجوههم سمحة ، ولون بشرتهم أسمر مشرب حمرة ، وأجسامهم مستوية. وقد اشتهرت نساء قبيلة « باين» بجمالهن ، وتراهن يسترن النصف الأسفل من أجسادهن بقطعة من قماش ملون يضممنها حول خصورهن. وتسير المرأة من نساء «البلين» بخطوات هادئة رزينة متناسقة ، وهى فخور بجسمها النحيل السمهرى المستقيم كالتمثال المنحوت ، وذراعاها سبطتان ، وخصرها لايضطرب مع سيرها ، كما أنه غير جامد أو متصلب ، وملامح وجهها مستوية رقيقة فيها خفر يضم سر الجاذبية غير المتكلفة . وقد قال لى أحد أدباء الطليان هناك : إن ممثلات السينما فى هوليود يمكنهن أن يتعلمن من نساء « البلين » الكثير من سر الجاذبية الجنسية .

الأدب الشعبي :

يغرم أهل أريتريا بالأحاجى و « الفوازير » وهذا يندر

فى لغات أتيوبيـــا ، وإن كنا نعهد مثله فى مصر . ولهم غرام أيضاً بقصص الحيوان أو بشرح الأمثال ،على نحو ما هو معروف فى الأدب العربى . فعلى مقربة من مصوع جبل منفرد على الشاطئ اسمه « جادام » . ويقول أهل أريتريا : إن الجبال أرادت أن تعقد مجلساً فقالت : لنذهب إلى الشاطئ ، ولما همت بالذهاب سبقها إلى هناك جبل جادام ، فوصل بمقدمه إلى البحر فطغى عليه وكان مؤخره لا يزال على الأرض ، فلم يتمكن الجبل من الحركة ، فصاح بزملائه : ليقف كل منكم مكانه . فوقفت الجبال حيث تراها إلى اليوم ؛ ولذلك تجد جبل جادام يتقدم الجبال إلى الشاطئ .

ويقولون فى الأمثال : « لا تركب خطأ ، فإنه يجب أن يقف كل فى مكانه كما قال جبل جادام » . ويقولون أيضاً : « أخطأنا كما أخطأ جادام » .

أما قصص الحيوان عندهم فلا تخلو من مغزى اجتماعى أو سياسى . وإليك مثلا قصة قصيرة : يحكى أن رجلين التقيا على قارعة الطريق فتبادلا التحية ، وسرعان ما وضع حمار كل منهما فمه على فم الآخر ، فاستغرب أحد الرجلين

وسأل الآخر عن سبب ذلك ، فقال له : إن الحمير أرسلت حماراً قويا إلى الله عز وجل يحمل شكواهم إليه ليخلصهم من نير الإنسان ، لذلك يتساءل الحمير كلما تلاقوا أرجع رسولهم أم لا » . المغزى : أن كل مخلوق يتطلع إلى الحرية .

وأما غرامهم بالشعر فعظيم ، وهم يعرفون من أنواعه الرثاء والغزل والمدح والهجاء وشعر الحوادث السياسية . وإليك بعض ما قاله شعراؤهم فى المصريين : فهذه مقطوعة شعرية نظمها رجل ثرى من أهل أريتريا أيام حكم الرأس « ألولا » وقد قبض عليه الرأس ووضعه فى الأغلال ولكنه هرب ، وقد تحير إلى أى الفريقين ينضم : الأحباش أم المصريين ، فقال يناجى ابنه موسى ويذكر له أنه سينضم إلى المصريين :

« ياموسى يبحثون عن أبيك كل يوم
يقولون لك هو سجين موثق بالأغلال
يقولون لك قد قتل وضرب بالخناجر
إن أباك ذاهب إلى جندار مع الخيول الصهباء
إن أباك ذاهب إلى مصر مع السودان الأمجاد » .

ثم هذه قصيدة أخرى نظمت أيام كانت قبائل التيجرى

موزعة بين الأحباش والمصريين ، وكان الشاعر مع المصريين يعمل فى حصن كيرين ، وكان له صديق انضم إلى الرأس ألولا ، فقال الشاعر القصيدة يخاطبه، ممتدحا المصريين ، ذاماً خصمه ، مشيرا إلى ضعفه إذ لا يستطيع أن يثأر من عشيرته ويرد على من يهجن فعله ثم يدفع قول العاذلين فى خطيبته :

« إن سيدى حاكم مصوع والمكوس (الجمارك)
أما سيدك فحدأة على الشجرة
إذا طارت خطفت المصارين والأحشاء
قد تركتم لنا من الفزع قبائل المنسع والهيجات
وكل من تركهم « ألولا » خلفه نحكمهم نحن .
ماذا يعطيكم لتأكلوا ، أليس إلا الخبز وحده !
يمتد بينى وبينكم بحر واسع
وسيدى يعطى الكساء الجديد إذا بلى القديم
ويجزل العطاء فيملأ يدى بالنقود
متى قلت إنى عريان أو إن لباسى ممزق .
فهل آخذ ثأرى منكم أو أتركه ؟
تعال إلينا فنحن أثرياء
فحماية سيدى لا تقدَّر فضلا عن سخائه

إن ثأرى جائع لكنه لا يرغب فى الطعام

إن ثأرى ظمآن لكنه يأبى الارتواء

لا يعدو ثأرى أبعد من الشكوى الكلام إلى الناس

فثأرى ضعيف لا تقوم له قائمة

والضعيف يتكلم حين لا يستجيب له أحد

يقولون (أى أصحاب الرأس ألولا) إنى سكران كأنى
ثمل من الخمر .

يقولون إنى مجنون كأنى اقتحمت منازلهم .

ولكنهم خاطئون فلم أشرب الخمر ولا طرقت منازلهم .

بلغ سلامى ياصديقى إلى الحبيبة إذا مررت بها

ليس جمالها الذى أعلنى وأسقمنى

بل كمالها فى قولها وتمامها فى فعلها

ليست عبدة ذات شعر مجعد سلاحها الكذب

ليست بغيًّا تجلس أمام كل بيت

إذا أحبت رجلا لا تلاحقه

وإذا لم تحب الرجل رفضت جميع ماله

هم يقولون إنها بغى كذباً وظلماً .

إنها قابعة فى دارها فى عيش رغد
أنا مطمئن إليها واثق بها
لذلك أنا ذاهب الآن إلى عملى فى الحصن حيث الضباط » .

السياسة :

تلك لمحات سريعة عن أريتريا قد تكشف لنا عن الأسباب التى أطمعت دولا ستًّا فيها ، وكل منها تطالب بحقها وتجاهد فى إثبات حجتها . وهذه الدول هى إتيوبيا وإيطاليا والسودان وبريطانيا والروسيا ومصر .

إتيوبيا :

بدأت إتيوبيا عام ١٩٤٤ بتنظيم جهودها فى المطالبة بضم أريتريا إلى أمها إتيوبيا ، فتكوّن فى أديس أبابا اتحاد سمى (اتحاد إتيوبيا — أريتريا) ، وأصدر جريدة أسبوعية (يأريتريا دمص) أى « صوت أريتريا » تصدر فى أديس أبابا وكذلك نظم هذا الاتحاد المظاهرات والاحتجاجات فى أديس أبابا . وفى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٤٥ طاف المتظاهرون بالمفوضيات فى أديس أبابا ، وقدم رئيس الاتحاد طلباً بأسم نصف مليون من

سكان أريتريا بالانضمام إلى إتيوبيا ، ثم توجت هذه المجهودات بمذكرة من وزارة الخارجية الإتيوبية مقدمة إلى مؤتمر وزراء الخارجية فى لندن ، ووزعت على الكثير من الهيئات فى الدول المختلفة ، أملا فى النظر بعين الإنصاف إلى مطالب أتيوبيا ، وهى ضم أريتريا والصومال الإيطالى إليها . وهبّ الأريتريون يطالبون بضم بلادهم إلى إتيوبيا وقاموا بمظاهرة كبيرة أمام لجنة التحقيق الرباعية الدولية فى أسمرا . ولكن سرعان ما تكونت جبهة من مسلمى أريتريا تعارض الانضمام إلى أتيوبيا ، وتكونت جماعة من الشبان الإيطاليين الأريترين ، وأخذت هيئات أخرى تتكون . وتتلخص اقتراحاتها فيما يلى :

رأى الشبان الإيطاليون الأريتريون أن تمنح أريتريا الاستقلال التام فى ظل حكومة محلية مختلطة ، وذلك إذا لم تمنح إيطاليا الوصاية على أريتريا . ورأت الرابطة الإسلامية وحزب التقدم الحر استقلال أريتريا وإن أخفقوا فالوصاية البريطانية تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة . وإشراك أهل البلاد فى أعمال الإدارة بالتدريج . ورفض أى قرار يرمى إلى تقسيم أريتريا ومعارضة كل فكرة ترمى إلى إيجاد أى نوع من أنواع الاتحاد

السياسى سواء مع إتيوبيا أو مع السودان .

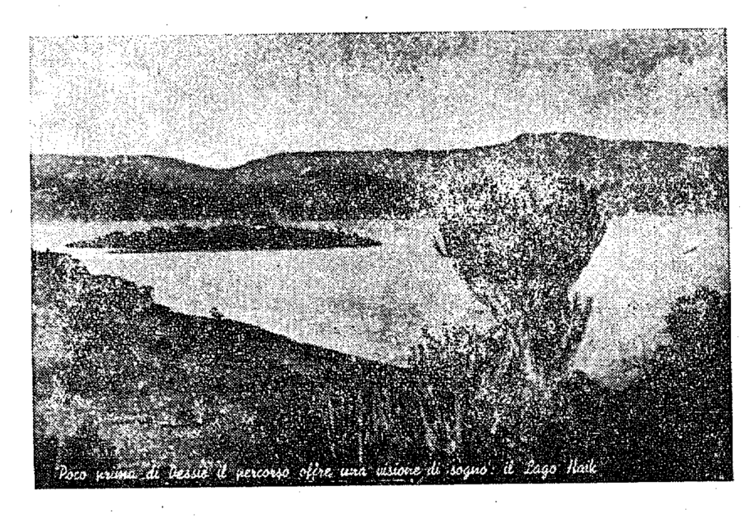
ورأى الاتحاديون الاتحاد مع إتيوبيا ، كما رأت ثلاث هيئات أخرى ، هى لجنة ممثلى الجالية الإيطالية والجمعية الإيطالية الأريترية وحزب « أريتريا لإيطاليا » الوصاية الإيطالية .

وكان من تشعب الآراء أن وقعت مشادات دامية بين الأحزاب السياسية المختلفة هناك عند وصول لجنة التحقيق ، ثم عدل حزب الرابطة الإسلامية وطالب باستقلال أريتريا وأرسل وفداً يمثله إلى هيئة الأمم فى أبريل سنة١٩٤٩ للدفاع عن وجهة نظرهم .

ونهضت فى أريتريا صحيفة أسبوعية للرابطة الإسلامية تصدر بالعربية ، وأخرى حكومية أسبوعية تصدر بالعربية والإنجليزية. وصحيفتان أسبوعيتان أخريان ، إحداهما للدعاية الإيطالية بالعربية والإيطالية ، وأخرى للدعاية لأتيوبيا بالعربية والأمهرية .

إيطاليا :

تحيرت إيطاليا فى الطريقة المثلى التى تقنع بها الحلفاء لاسترداد مستعمراتها . وقد طالعنا السنيور دى جاسبيرى



بحيرة هايك بالقرب من مدينة ديسي

وزير خارجيتها فى شهر سبتمبر سنة ١٩٤٥ فى مجلس وزراء الخارجية بأن لجنة الحلفاء الفرعية تبحث مشروعاً أمريكياً فى مسألة المستعمرات لم ينشر بعد ، وقال إن مسألة المستعمرات فى نظر إيطاليا الآن لا تبدو فى الروح الإمبراطورية التى كانت رائد إيطاليا قبل الحرب العالمية الثانية ، ولكنها مسألة ذات صبغة اجتماعية . وزاد أن خمسين سنة فى العمل والمساهمة فى التقدم العالمى لا يجوز أن تذهب هباء . وقال أيضاً : إنه لا يمكن إعادة تنظيم الحياة الاستعمارية الإفريقية إذا أبعد الشعب الإيطالى أو جعل العمل مستحيلا عليه وبخاصة أن الحركة الديمقراطية على أتم استعداد لمنح المستعمرات الحكم الذاتى . وفى شهر نوفمبر سنة ١٩٤٥ تبين مما تبودل من مذكرات نشرت فى واشنطون وروما أن الحكومة الإيطالية تقدمت بمطلب صريح لاسترداد سيادتها على أريتريا وطرابلس والصومال ، مع قبولها إنشاء منطقة حرة فى مصوع . وقد ذكرت إيطاليا أنها تريد مستعمراتها لامتصاص ما يزيد على ما تتسع له إيطاليا من الرجال ، وليس غرضها أن تكون المستعمرات أداة تعمل على بث روح الإمبراطورية .

وقد توصلت إيطاليا إلى حجة أخرى للاحتفاظ بمستعمراتها. وهى أنها قد حصلت على أريتريا والصـــومال وطرابلس وبرقة بتأييد البريطانيين وموافقتهم . ويقول الطليان إن بريطانيا أيدتهم فى استعمار الصومال وطرابلس وبرقة ، وإن بريطانيا نظرت بعين الارتياح إلى احتلال عصب ومصوع ؛ إذ أن الحكومة البريطانية التى كان عليها أن تتدخل فى الشؤون المصرية فى ثورة عرابى أغرت إيطاليا باحتلال هذين الميناءين حتى يمكن سحب القوات المصرية فى السودان عن طريقهما فى ثورة المهدى . وقالوا أيضاً إن موقف إيطاليا فى شرق أفريقيا كان قد دبر مع بريطانيا قبل أن يتمكن اللورد كتشنر من من كسر شوكة المهدى .

السودان :

فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٥ صرح السودانيون بآرائهم على صفحات الجرائد فيما يتعلق بأريتريا ، ولكنهم لم يوحدوا جهودهم ولم ينظموا صفوفهم فتشعبت آراؤهم . فتجدهم يطالبون تارة بإعادة الأقاليم التى اقتطعت من حدود السودان

الشرقية ، وهى إقليم يسكنه جزء من قبيلة بنى عامر السودانية ، وإقليم شرق القلابات ، ومنطقة المتمة ، وإقليم قويا الذى تسكنه قبائل القمر والهمج ، وإقليم بنى شنقول ، وهو إقليم خصب به مناجم للذهب وقد كان جزءاً من السودان فى عهد الحكم المصرى .

ثم تجدهم تارة يعرضون النزول عن منطقة بنى شنقول التى استولت عليها الحبشة فى ظروف غامضة ، ويساومون فى أخذ منطقة بحيرة طانا بدلا عنها ، وهى منطقة تهم السودان على حين أنها ليست بذات بال للأحباش — على حد تعبيرهم .

وقد بدأ السودانيون فى رسم خطتهم إزاء أريتريا فصرحوا بأن فيها ثلاثة اتجاهات سياسية :

١ — سكان من المسيحيين ينادون بالانضمام إلى الحبشة ويؤيدهم اتحاد إتيوبيا — أريتريا .

٢ — سكان من المسلمين يريدون الاستقلال التام أو الانضمام إلى السودان .

٣ — سكان السواحل من قبائل الساهو والمتطوعين ، وهم يطالبون بأن تفصل أراضيهم عن الأراضى التى يسكنها غيرهم

وأن تكون لهم حكومة ساحلية .

وبعد عرض هذه الاتجاهات وجدت الحكومة السودانية أن من الخير لها أن تشجع الاتجاه الثانى .

ونسمع فى أوائل عام ١٩٤٦ بوصول وفد من أريتريا إلى الخرطوم قوامه اثنان وعشرون من الأعيان وزعماء العشائر . وقد خصصت الحكومة السودانية بضعة آلاف من الجنيهات للحفاوة بهم واستقبالهم استقبالا شعبياً . وقد اهتم بمقدم هذا الوفد السيد على الميرغنى باشا ، إذ يدين له كثير من سكان أريتريا بالولاء من الناحية الدينية . وقد صرح الوفد بطلب ضم أريتريا إلى السودان لأن أريتريا لا تستطيع أن تستقل بنفسها اقتصاديا بسبب قلة مواردها وجدب أرضها .

بريطانيا :

بعد أن احتل الحلفاء أريتريا عام ١٩٤١ بقليل استولت عليها وحدات من جيش الولايات المتحدة الأمريكية وأنشأت فيها المصانع والمبانى ، واستبشر الأهالى بأن عهد رخاء سيعم البلاد . ولكن البريطانيين مالبثوا أن تسلموا الإدارة

ثم المصانع والمبانى ، وأصبحت البلاد فى يد بريطانيا وحدها دون غيرها من الحلفاء ، ونزل لهم الأمريكان عن هذا الجزء من الأرض لسبب لا يعلمه إلا أهل السياسة . وبديهى أن بريطانيا لا تحتاج فى أريتريا إلى دعاية أو مطالبة ، فهى هنالك بحكم الواقع . ولكن ربما أمكنها أن توجه الرأى العام فى الاتجاه الذى تراه صالحاً . فقد اقترح البريجادير كندى كوك الذى كان حاكماً لكسلا فى شهر سبتمبر من عام ١٩٤٥ إنشاء نظام ثنائى إنجليزى – إيطالى على أريتريا . وهذا بعد القيام بتعديلات إقليمية فى الأراضى المنخفضة المجاورة للسودان . ثم استطرد بأنه إذا استحال تنفيذ هذا الاقتراح ، وخاصة إذا ظلت ولاية التيجرى الحبشية تابعة لأتيوبيا ، فإنه يقترح ضم مستعمرة أريتريا كلها إلى السودان على أن يفرض عليها نظام شبيه بنظام الانتداب .

وقد تقدم البريجادير لونجريج مدير شؤون أريتريا باقتراح آخر وهو ضم الأراضى المرتفعة من أريتريا إلى السودان وفرض الوصاية البريطانية أو الأمريكية أو الدولية على المنطقة الساحلية ، وبها مصوع وولاية التيجرى الحبشية .

هذه بعض المقترحات التى أوصت بها بريطانيا إلى بعض المسئولين من رجالها . إلا أن التاريخ سيثبت لنا مقدرة بريطانيا على الاحتفاظ فى أى صورة بسيادتها على جزء من أريتريا ، أو على الأقل بمصوع التى تعتبر قلب البحر الأحمر .

الروسيا :

وقد أدلت روسيا بدلوها فى الدلاء وطالبت بمصوع ، ثم طالبت بوضع أريتريا تحت وصايتها . وحجتها فى ذلك أنها تريد أن يكون لها رقابة فى البحر الأحمر . ولا يعدو طلبها هذا أن يكون خلق مشكلة سياسية جديدة .

مصر :

طالبت مصر بعد تردد فى مؤتمر الصلح بباريس الذى عقد فى سبتمبر سنة ١٩٤٦ أن تسترد « مصوع » وتضم للسودان ، وبينت أن مصوع لا غنى عنها لرقى السودان من الوجهتين الاقتصادية والتجارية ، فهى المنفذ الطبيعى لتلك البلاد

••

الواسعة ومنه ترد البضائع والمصنوعات الأجنبية ، وطالبت أن يعترف بحقوق مصر فى مصوع وأن تضم هذه المدينة ثانية إلى السودان . ثم عادت مصر وتنازلت عن طلباتها فى أريتريا .

فى هيئة الأمم المتحدة :

فى شهر مايو من هذا العام نظرت هيئة الأمم المتحدة فى اجتماعها مسألة المستعمرات الإيطالية السابقة فطالبت أتيوبيا بإعادة أريتريا كلها إليها ، بينما لم تطالب حكومة السودان بضم أى جزء من أريتريا إليها ، ولكنها أبدت استعدادها لإدارة الجزء الغربى منها إذا رأت هيئة الأمم ودولتا الحكم الثنائى أن هذا الضم أفضل حل للمشكلة . ورأى حزب الأمة فى السودان ألا يطالب بضم أى جزء من أريتريا إلى السودان ، وذلك وفقاً لمبدأ تقرير المصير وأن من حق أريتريا أن تقرر مصيرها بنفسها .

ولما اجتمعت اللجنة الفرعية ، وهى متفرعة عن اللجنة السياسية العامة لهيئة الأمم المتحدة، قررت ضم الجزء الغربى من أريتريا إلى السودان وضم الجزء الشرقى منها إلى أتيوبيا . وقد سمح لمندوب أهالى المستعمرات بإبداء رأيهم فى مشروع القرار الذى وضعته هذه اللجنة الفرعية ، فقال مندوب الرابطة الإسلامية إن الرابطة الإسلامية الأريترية وهيئة أريتريا الجديدة وحزب الأحرار وحزب التقدم وحزب العساكر القدماء والجمعية الإيطالية الأريترية اتفقوا على المطالبة باستقلال أريتريا ، فإذا لم يكن ذلك مستطاعاً فلتوضع أريتريا تحت وصاية هيئة الأمم المتحدة . وقال إن هذه الأحزاب جميعها تحتج على اتفاق بيفن — سفورزا الذى يقضى بتقسيم أريتريا، لأن هذا الاتفاق ليس فى صالح أريتريا وهو يتعارض وميثاق الهيئة .

ومما يجدر ذكره أن حزب أريتريا الجديدة وحزب العساكر القدماء والجمعية الإيطالية الأريترية كانت فى بداية الأمر قد طلبت وضع أريتريا تحت وصاية إيطالية .

وفى الثامن عشر من شهر مايو فى هذه السنة عرض الأمر على الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة فوافقت على ضم الجزء

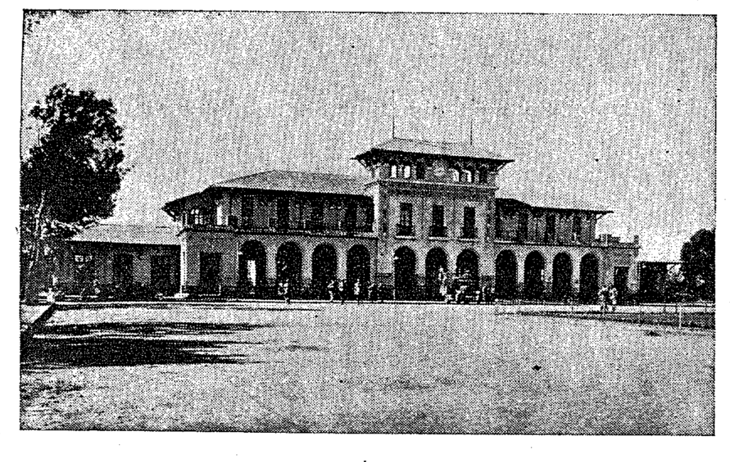
الشرقى من أريتريا إلى أتيوبيا ، ورفضت التعديل المصرى الذى يقضى بضم الجزء الغربى من أريتريا إلى السودان ، ثم عادت الجمعية العامة فأرجأت النظر فى مشكلة المستعمرات الإيطالية السابقة عامة إلى دور الانعقاد المقبل .

وهكذا سنستمع فى دور الانعقاد القادم إلى تقرير مصير أريتريا .

الحبشة

وصلت الباخرة سيرها متجهة صوب چيبوتى بعد أن اجتازت مضيق باب المندب تاركة وراءها أريتريا ، فأدركت چيبوتى عاصمة الصومال الفرنسى ومیناءه ، وهناك حرارة مع رطوبة ليل نهار لا يدركهما خيال المصرى . والماء بها ساخن يميل إلى الملوحة ، بها لونان من ألوان الطعام ، أرز بالكركبة وسمك بالبسبسة ، وشعب خليط بين الصومال والعرب والهنود . ومع أن چيبوتى فرنسية شكلا فإنها يونانية الصبغة ، يتكلم أهلها العربية وأنت تحتاج إلى قدر كبير من المعرفة بموازنة اللغات حتى تستطيع فهمها . وچيبوتى فى جملتها تعطيك فكرة عن جهنم .

سار بنا القطار من چيبوتى إلى أديس أبابا مسافة ٧٩٩ كيلو متر فى مفازة جرداء خاوية إلا من بعض محطات السكة الحديدية أطلق عليها هذا الاسم تجاوزاً . ويعيش فى هذه الصحراء قبائل من الدناكل عارية النصف الأعلى من أجسادها ،



محطة سكة الحديد بأديس أبابا

لا ترى الرجل منهم إلا ممسكاً رمحه مستنداً إليه رافعاً كعب قدمه اليسرى إلى أعلى فخذه الأيمن وقد يمضى الساعات على هذه الصورة دون تبديل .

وصل القطار إلى مدينة ديريداوه وهى أول مدينة حبشية كبيرة صادفتها ؛ ترتفع عن سطح البحر ١٢٠٠ متر ، جوها معتدل نوعاً ، تتراوح حرارتها بين ١٠ ، ٣١ درجة مئوية . يصلها بمدينة هرر طريق معبد للسيارات يجتازه المسافر صعوداً إلى ارتفاع ١٩٠٠ متر فوق سطح البحر فى ساعتين . والطريق غنى بمناظره الطبيعية الجميلة ، ومدينة هرر غنية بفواكهها وخضراواتها ، إلا أن صعوبة المواصلات بينها وبين أجزاء الإمبراطورية الأخرى فوّت استغلال هذه المميزات . وجوها معتدل جاف طول السنة ، يبلغ متوسط حرارته ٢٠ درجة مئوية . ثم يسير بك القطار من ديريداوه صاعداً الهضبة الحبشية صوب أديس أبابا فى طريق صخرى متنوع المناظر الخلابة .

تقع أديس أبابا على ارتفاع ٢٥٠٠ متر فوق سطح البحر ، جوها بارد كجو الخريف عندنا معدل حرارته بين ١٥ — ١٧ درجة مئوية . ولا يستطيع الإنسان مع هذا الارتفاع أن يبذل

مجهوداً جسمانياً كبيراً . ويسقط مطرها فى موسمين : الموسم الصغير من مارس إلى مايو ومتوسط عدد الأيام الممطرة خلال الثلاثة الأشهر ٢٩ يوماً، ومتوسط ما يسقط من المطر فى الشهر ١٠٠ مليمتر . أما الموسم الكبير فمن يونيه إلى سبتمبر. وعدد الأيام الممطرة فيه ٩٢ يوماً، ومتوسط ما يسقط من المطر فى الشهر ٢٢٠ مليمتراً . ولكن هذه الأرقام لا تعطى صورة صادقة عن حالة المطر ، ولا يجدى الوصف لإعطاء المصرى صورة عن مطر الحبشة ، ولعل أسهل الصور إلى ذهنه أن يتصور ماء النيل مفتوحاً فوق رأسه بضع ساعات يوميا .

وبمجرد انتهاء موسم الأمطار تكسو البلاد طبقه من الزهور المتنوعة الجميلة وخضرة براقة ، كما تكثر الطيور التى تسترعى الأنظار بتباين ألوانها وتناسقها .

وقد تسير فى طريق مدينة جمّة فتصحبك رائحة الياسمين البرى الذى يترعرع على جوانب الطريق ، وقد تسير فى طريق أديس أبابا ــ أسمرا وهو طريق يبلغ ١١٠٠ كيلومتر فتبهرك مناظره الطبيعية الخلابة من جباله وأوديته . وقد أطلق أهل أوربا على الحبشة بحق « سويسرا أفريقيا » .

وتمتاز الحبشة بوجود مياه معدنية بين ربوعها ، نذكر منها في أديس أبابا « الفول وها » وهو نبع حار مجهز بالحمامات ، تخرج مياهه من منفذين أحدهما حرارته ٧٦ درجة مئوية والآخر ٥٧ درجة مئوية . ثم نبع « أرار جوتا » في الطريق بين ديريداوه وأديس أبابا ، وهو نبع تبلغ حرارته ٤٠ درجة مئوية ولعل أشهر ينابيعها ما وجد في بلدة « أمبو » وهي تبعد عن أديس أبابا حوالي ١٣٠ كيلو متراً ، منطقتها بديعة للناظر . وهي خط تقسيم مياه ثلاثة أنهر : النيل الأزرق وأواش وأمو . وحرارة نبعها ٣٠ درجة مئوية . وبها استعداد للحمامات ، على أنها لا تزال تفتقر إلى كثير من العناية .

الجنس :

تمتاز الحبشة بتعدد الأجناس فيها ، حتى إن العلماء يطلقون عليها « متحف الشعوب » . وفي رأيي أن تاريخ الحبشة في عصوره المختلفة لا يمكن أن يفهم على حقيقته إلا إذا أقمنا اعتباراً لمشكلة الجنس . وأهم العناصر التي تتكون منها أجناس الحبشة ثلاثة : عنصر سامي ، وعنصر كوشي ، وعنصر إفريقي . أما العنصر السامي فقد دخل البلاد من الشرق وأتى

من جزيرة العرب . ويظهر أنه استمر فى دخول الحبشة عن طريقين ، طريق الأريتريا وطريق الصومال . وقد نفهم كيفية دخوله على مر السنين من ملاحظة ما هو حادث الآن فى الحبشة . فأهالى اليمن وحضرموت منتشرون فى جميع البلاد الصغيرة والكبيرة يحترفون التجارة الكبيرة منها والصغيرة ، وهم يهاجرون بالتدريج إلى الحبشة . هذه ظاهرة أظنها لا تختلف عما كان يحدث بل هى استمرار للقديم ، ويمكننا أن نتصور كيف كون هولاء الساميون لأنفسهم قديماً قوة فسلطاناً فملكاً . وهذا يعلل لنا الصلة القوية الطبيعية المستمرة بين شبه الجزيرة العربية وسواحل الحبشة على البحر الأحمر قبل ظهور الإسلام وبعده . ومما هو جدير بالذكر ما نعلمه عن وصول مهاجرين يبلغ عددهم ٨٠٠ نسمة حوالى عام ١٨٦٩ من قبيلة الرشايدة من أهالى منطقة جدة واستقرارهم على الشاطىء الشمالى فى أريتريا . وأهم العناصر السامية الآن : الأمهرا والشعوب التى تتكلم التيجرى والتجرينيا والهررية ثم العرب .

أما العناصر الكوشية (الحامية) فقد دخلت الحبشة من الشمال والشمال الغربى ، أهمها الجالا والصومال ، وكانت مصدر

حروب دائمة مع العنصر السامى .

أما العناصر الأفريقية فأتت من الجنوب والجنوب الغربى . وأظهرها الشنقلا والولـّجا ، وهى العناصر التى يعتبرها الحبشى من العبيد . ونلاحظ أن اسم قبيلة شنقلا أصبح يطلق اصطلاحاً بمعنى العبد .

وعلى الرغم من اختلاط بعض العناصر الأخرى بالجنس الأصلى فإن التمييز بين العناصر المختلفة من حيث الشكل سهل ميسور .

كان السلطان منذ فجر التاريخ الحبشى فى القرن الثالث الميلادى إلى احتلال إيطاليا فى يد العنصر السامى . وقد جاهد الجنس السامى الحاكم فى كل العصور التاريخية حتى حافظ على هذا السلطان . ولاحظ الطليان هذه الظاهرة عند دخولهم الحبشة فأرادوا أن يغيروا الوضع عندما حاولوا الحط من قيمة العنصر الأمهرى ، وهو العنصر الحاكم ، بل القضاء عليه ، ورفعوا من شأن الجالا والصومال والعرب الداخلين وغيرهم وقربوهم إليهم . فنشأ من تغيير الوضع القديم بمثل هذه السرعة مشكلة تواجهها الحكومة الأتيوبية الآن إلا أنها تعالجها بحكمة ؛ فقد

أبقت الوضع الجديد الذى خلفه الطليان وبدأت تدخل بالتدريج العنصر الأمهرى الذى استبعده الطليان ، وأمكنها بذلك أن توازن بين الأجناس المختلفة . وهذه أول مرة فى تاريخ الحبشة يسوى فيها بين جميع الأجناس ، وهذا بدوره سيقضى على كل الثورات الداخلية فى المستقبل ويقوى وحدة أتيوبيا القومية والسياسية .

اللغة :

يتبع تعدد الأجناس تعـدد . اللغات فى الحبشة ، بل أكثر من هذا ، فإن الجنس الواحد قد تتفرع لغته إلى لهجات ، وهذه بدورها تتباعد عن الأصل مع مرور الزمن وتغير البيئة حتى تصبح لغة . والحبشة غنية بظواهرها اللغوية ، فإن وضعها الجغرافى وسط حضارات مختلفة من سامية وكوشية ونيلية وغيرها ، جعل منها بيئة صالحة للتطورات اللغوية .

وهناك ثلاث مجموعات من اللغات : السامية والكوشية والنيلية . أما اللغات السامية فهى أكثرها انتشاراً بين العناصر السامية وغيرها ، وقد عددت ثمانى لغات مختلفة أهمها الجعز

(أو كما ينطقونها الآن الجيز إذ أن نطق العين والحاء سقط تحت تأثير اختلاط الساميين بغيرهم) . وهذه اللغة أقدمها تاريخاً وهى لغة الكنيسة إلى الآن ، وكانت إلى عصر قريب لغة الأدب الذى لم يصلنا منه إلا الأدب الكنسى ، ومعظمه إن لم يكن كله مترجم عن الأدب القبطى العربى ، وهى فى تراكيبها ومعانى كلماتها أقرب ما تكون إلى اللغة العربية . أما اللغة الأمهرية فهى لغة الدولة منذ القرن الثالث عشر الميلادى إلى الآن ، ونعتبرها أختاً للجعز وليست مشتقة منها ، وهى متأثرة فى صيغتها باللغات غير السامية التى عاشت بينها قروناً طويلة قبل أن تصير لغة الدولة .

واللغة العربية منتشرة على الشواطىء وفى الداخل خصوصاً فى المراكز التجارية . أما اللغة الهررية فهى لغة سامية أيضاً تكتب بحروف عربية .

وأما اللغات الكوشية فقد عددت منها تسع عشرة ، أهمها لغات الجالا والصومال . ولغة الجالا موسيقية رقيقة على السمع ، فيها أدب شعبي كبير لم يدون ، وقد بدأ المستشرقون فى جمعه ونشره بالحروف اللاتينية .

أما اللغات النيلية فلم نتمكن من إحصائها كلها إحصاء دقيقاً ، وقد عرفنا منها إلى الآن أربع عشر لغة ، أهمها الكوناما والباريا .

وتعد الآن اللغة الأمهرية أهم لغات الحبشة شأناً ، إذ أنها اللغة الرسمية للدولة . وقد اهتمت الحكومة الأتيوبية أخيراً بأن تعمم استعمالها فى جميع مناطق الحبشة . فإن توحيد لغة الكتابة أول مظهر من مظاهر القومية . وليس معنى هذا أن يقضى على اللغات الأخرى بل على العكس قد اهتم جلالة الإمبراطور مثلا بتعليم اللغة العربية فى المناطق المختلفة وخاصة تلك التى يكثر فيها المسلمون . ولكن جلالته أشار بأن يوجه التعليم فى اللغات توجيهاً قوميا . وقد عهد إلىّ بوضع كتب فى المطالعة العربية وقواعدها يراعى فيه هذا الاتجاه القومى ، كما عهد إلى أحد الأساتذة من الأمريكيين فى وضع كتاب للمطالعة الإنجليزية يراعى فيه الاتجاه نفسه . وهناك مدرسون للغة العربية فى المدارس الحكومية فى هرر وديريداوه وججججه وأديس أبابا وديسى وچمة .

ومع أن اللغة الأمهرية كانت لغة التخاطب منذ قرون

فإنهالم تصل إلى مستوى اللغات الأدبية إلا قريباً ؛ فإن أقدم ما وصلنا منها مكتوباً يرجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى . ولعل ضعفها يرجع إلى وجود لغة الكنيسة (الجعز) إلى جانبها . ولما اشتد الجدل بين رجال الدين من الأجناس وبين الإرساليات التبشيرية الأجنبية منذ القرن السادس عشر وشرع رجال الإرساليات من الكاثوليك فى تدوين آرائهم بالأمهرية لم يجد رجال الدين الحبشى بدا من الرد عليهم بالأمهرية ، ومن ثم ترجم الكتاب المقدس بالتدريج إلى الأمهرية ، وهكذا رفعت الأمهرية إلى مصاف اللغات الأدبية .

ويواجه الأحباش مشاكل لغوية كثيرة حتى يجعلوا هذه اللغة تساير الحضارة . وقد أمكننى أثناء إقلعتى هناك أن أقوم بوضع المصطلحات العلمية فى الحساب والهندسة العملية والجغرافيا . ولكن الصعوبة التى وجدتها ويجدها أهل الفنون المختلفة من الأحباش، هى رفضهم إدخال المصطلحات الأجنبية بلفظها ، ، فإذا أخذنا فى ترجمة المصطلحات إلى اللغة الأمهرية — كمافعلت — وجدها الناس لا تتفق مع ما اعتادوا عليه من معانى الألفاظ الأصلية فاستغربوها . وهكذا تحتاج المصطلحات االعلمية إلى وقت طويل حتى يستسيغها

الناس كما هو الحال عندنا . واللغة سائرة فى دور التطور ، إلا أن الأحباش يبالغون الآن فى التمسك بها والتعصب لها . وربما كان لهم بعض العذر فى هذا التصرف ؛ فقد خرجوا من الاحتلال الإيطالى الذى حاول القضاء على لغتهم بمنع تدريسها فى المدارس وإحلال اللغة الإيطالية محلها ، فلما استردوا بلادهم وجدوا أن الطليان قطعوا ما بينهم وبين ما كانوا شرعوا فيه من إحياء اللغة . وكانت اللغة الأمهرية غير منتشرة انتشاراً بعيداً فى أنحاء الحبشة ، إلا أن الاحتلال الإيطالى أظهر للأحباش جلياً قيمة اللغة الواحدة فى إنشاء الوحدة ؛ إذ أن المسافر الآن يمكنه أن يتفاهم باللغة الإيطالية فى جميع أنحاء الحبشة بعد خمس سنوات من الاحتلال .

الأدب الشعبي :

والشعب الحبشي لديه إحساس أدبى رفيع يظهر فى الأدب الشعبي من شعر قصصي وحكم وأمثال ، وهم مغرمون بالتلاعب بالألفاظ والجناس والكنايات والمعانى المجازية وما إلى ذلك ، إلا أن أثر الأدب الكنسى جعلهم يشعرون بأن تدوين هذه

الآداب الشعبية يتنافى مع الوقار ؛ فلذلك لا يعطينا الأدب الأمهرى المكتوب صورة صحيحة عن الشعب الحبشى . وسأحاول أن أعرض بعض أنواع الأدب الأمهرى المتداول بين الشعب .

ولعل الشعر هو أظهر أنواع هذا الأدب ، وقلما تجد إنساناً هناك لا يزن الشعر ويغنيه على القيثار ، وهم يلتزمون القافية فى الشعر ، فتجد عندهم الشعر الذى يتغنى به الأبطال ، وأظنه معروفاً من زمان قديم بسبب الحروب الدائمة التى مرت على الحبشة ، ومثاله :

« أفسحوا الطريق
لباشا أبّاى الشجاع
فهو يعرف كيف يصلح الحال بفرسه الأبيض
يعرف من يقتل ومن يرحم
خضّب أيدى الفرسان وأرجلهم » .

وكذلك ينتشر بينهم شعر التهريج الذى ينشدونه فى المناسبات المختلفة مثل رأس السنة وأول الصيام والأعياد المختلفة . ولكل مناسبة من هذه المناسبات نغمة معروفة ينشدون بها الأشعار

المختلفة ، بل قد تجد نغمة للأطفال ونغمة للبنات ونغمة للشبان .
ووزن هذا الشعر قصير ذو أربعة أو خمسة مقاطع :

وهذا صوت ينشده النساء ، يدل على ما للربيع من أثر في نفوسهن حين يخرجن للقائه ولا يلتفتن إلى منازلهن .

« أمضيت نهارى أناجى الزهور
وعند المساء طبخت الفول
أعطيت زوجى ليأكل
فضربنى بالمغرفة على ضلوعى » .

ومن أناشيدهم فى يوم « بوهى » وهو انتهاء فصل الأمطار ، والمنذر بابتداء الربيع :

« صاح الديك
فالليل قد مضى ،
وجاء بوهى
فالشتاء انقضى » .

ومنهـــا :

« فلنغنّ ولنقل « بوهى »

ولنجتمع كلنا فى صفاء
ها قد ظهر الدخان من بعيد
إنه العمدة يجهز الوليمة .
أكلت وشربت الكفاية فيها
ثم استلقيت على السرير
تبا لهذا السرير فإن له عادة مستهجنة
فهو لا يتسع فى النوم لأكثر من واحد » .

ثم هناك نوع آخر من الشعر وهو الشعر الإمبراطورى يقال فى المناسبات المختلفة فى يوم التتويج أو الميلاد أو غيره . وهو شعر وزنه فى الغالب رصين على ستة مقاطع ، يتحاشى فيه الشاعر المعانى المجازية حتى لا يحمل على غير محمله .

وإليك بعض أبيات مقتبسة من قصيدة فى عيد ميلاد الإمبراطور :

« إن لم نجدك يامخلصنا
فمن كانت تجد بلادنا الفردوسية
نريد أن نغنى لك أناشيد جميلة

أحلى من العسل والسكر .
قد أضاءت أتيوبيا بنور ساطع
واختفى الليل وصار نهاراً . »

وكذلك يتبارى الشعراء فى تقوية القومية عند النشء بوضع أناشيد قومية عن أثيوبيا ، مثال ذلك :

« أتيوبيا التى تنتج لإرضاء أطفالها
تنبت الزرع دون بذر — لا تتعب كثيراً
تحمى القمح وتقلع الحشائش
رأينا كيف تطعمنا بعد أن أنضجتنا الشمس
وطننا الحصاد
ومملكتنا المطر . »

وهم يحثون النشء على تعلم اللغة الأمهرية قبل كل شىء ، من ذلك قولهم :

« لساننا كالملعقة الصغيرة
لايقوى أن يحمل مع لغتنا لغة أخرى

إذا عرفت جيداً الجيز والأمهرية
يمكنك بعد ذلك أن تسرق اللغات الأجنبية . »

ولكن الشعر المفضل عندهم هو الشعر الذى يحمل معنى مجازياً ، ويزداد شغفهم به كلما شعروا بضغط سياسى داخلى أو خارجى أو إذا أرادوا أن يوجهوا النقد الاجتماعى أو السياسى . وقد انتشر هذا أيام الطليان حتى إنه ضايقهم كثيراً ، ولكنهم لم يتمكنوا من القضاء عليه . وهذا النوع من الشعر قصير يتغنى به . ومن أمثلة ذلك :

« قد حل الوباء فى منزلنا
متى يمكن أن نتحرر من هذا الداء »

وقد ظهرت قصيدة عام ١٩٣٧ أيام الاحتلال الإيطالى على طريقة المجاذبة .

يقول الأول :

« حل يوم الوليمة
هلا ساعدتنى فى إحضار الخبز والتوابل ! »

فيرد الثـــانى :

« لا مانع عندى سأصنع ما فى استطاعتى
فطاهيتنا « خضراء » تعرف الواجب
يمكننا أن نحضر الحبة البيضاء
وأنت تحضر الحبة السوداء »

القول الأول موجه من الإمبراطور لكى يساعده الشباب على طرد العدو ، فيرد عليه شباب أتيوبيا (اسم الطاهية خضراء) بأنه على استعداد لطرد الطليان (الحبة البيضاء) وما على الإمبراطور إلا أن يحضر ليحكم أتيوبيا (الحبة السوداء).

وقد يوجه النقد إلى الحكام على هذا النحو :
« اسمع صوت الناى والنفير ، أين هذا ؟
الناى فى الباب المسروق (اسم الباب الخلفى من القصر الإمبراطورى) والنفير فى القصر (ومعنى الكلمة أيضا الزواج) »
أى أن الترقية لا تأتى إلا عن طريقين : الأول السرقة وإعطاء الرشوة ، والآخر الزواج من بنات العظماء .

وللأحباش غرام خاص بالأمثال والحكم ، فهم يقولون: « يجب أن يبدأ الحديث بحكمة كما يبدأ النشيد بهليلويا » .

والحكمة عندهم – كما فى غيرها من اللغات – مختصرة يغلب عليها السجع ، ولذلك يصعب نقلها إلى لغة أخرى إذ يضيع رونقها وبلاغتها ولكن معناها يكفى ليدل على ناحية من مناحى التفكير فى الشعب، ويصور – إلى حد ما – بعض خصائص حياته الاجتماعية . وسأسوق طرفاً مما جمعته منها :

– من يقاضى كثيراً لا يربح

– إذا كانت العصا فى يدى فالحق فى فمى .

* * *

– إذا دخل المرأة الكبرياء احترق الغداء والعشاء .

– من تحبه المرأة فمصيره إلى جهنم .

– وطن المرأة زوجها .

– العصا للحمار والنساء .

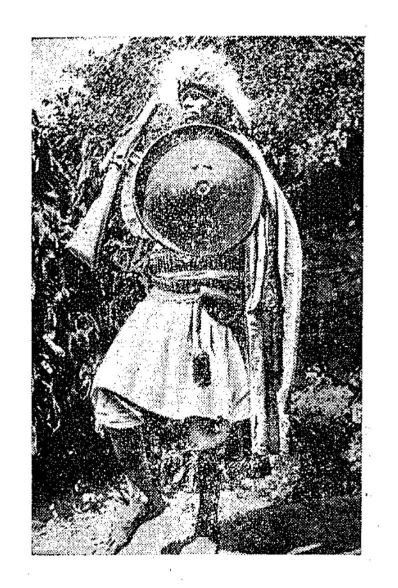
– انظر إلى الأم ثم تزوج البنت .

* * *

– القروى خجول فى مأكله جرىء فى كلامه .

– يكره القروى من يحترمه .

* * *



محارب قديم من الأحباش

ـ الأجنبي كالخيط ينفذ من الإبرة ثم لا يلبث أن ينتشر كالجميز .

ـ صداقة الأجنبي كالماء ينقصه البهاء .

* * *

ـ على الانسان الإبتداء وعلى الله الإنهاء .

ـ التفاهم أهم من العلم ، والتجفيف أهم من الغسل ، والاستعلام أهم من السفر .

ـ البطين لا يعرف الحب .

ـ من يتكلم أولاً يُكره ، الفاكهة التي تنضج أولاً يأكلها العصفور .

ـ رب تلميذ أعلم من أستاذه .

ـ لا تمسك ذنب النمر ، فإذا أمسكته فلا تتركه .

ـ اترك قلبك يحترق خير من يدك .

ـ أرى البائس فتأذى عيني (يقال للبخيل)

ـ الاتحاد يورث القوة ، والحرية تنشر المعرفة .

ـ اسمع واسكت يرض الله عنك .

ـ إذا أقفلت فاك لا يدخله الذباب .

ــ اسمع قبل أن تتكلم ، وامضغ قبل أن تبلع .

ــ يمكنك أن تسرق بقرة الأخرس .

ــ القرية المكتظة بالعزّاب تجدب بعد عام .

ــ لا بد للفجر والحقيقة أن يظهرا .

ــ الخمر : الكأس الأولى تلهب قلبك ، والثانية تبرد قلبك ، والثالثة تحقد قلبك ، والرابعة تسل سيفك .

ــ دخل ليشرب فجلس ، ثم انتهى بأن ورث .

ــ قبل أن تلف العمامة كن عالماً .

ــ يكون الضيف ذهباً ثم فضة ثم حديداً .

ــ مهما تجمع الذباب فلن يفتح الجرة .

ــ إن لم تقترض تعش فى سلام .

ــ الطفل الذى لم يتعود الضرب يبكى إذا لمسته .

ــ شيطان معروف خير من قديس مجهول .

ــ إذا شفى المريض نسى الله .

ــ إذا أردت أن تفضح الكاذب فاسأل أخاه وأخته .

ــ لا يمكن أن أبكى إلا من عينى ، ولا يمسح دموعى غيرى .

ـ إذا احترق بيت غيرك خيل إليك أنه قش يحترق .
ـ إذا أكل الخادم الدسم احتاج إلى من يؤدى عمله .
ـ ما يتركه الأسد يأكله الضبع .
ـ الأقارب والدواء تحتاج إليهما فى اليوم العسير .
ـ يحب الإنسان أن يرى أولاده تقبّل ، وما يقدمه للضيوف يؤكل .
ـ فرق عظيم بين من يضحك من الفرح ومن يضحك من الألم .
ـ إذا أمكنك أن تمسك سيدك من رجله أمكنك أن تضربه .
ـ المعلم الحليق كالكنيسة الجرداء .
ـ العمل الموكول إلى الشيوخ ينجح إن عاجلا أو آجلا .
ـ تعرف قدر المرء من قوله .
ـ إذا تكلم السفيه سمعه العاقل .
يحكم على البغل بمنظره ، وعلى الخادم بعمله .

* * *

وقد تغلغل الغرام بالحكم والأمثال عندهم حتى لقد ينطق

القاضى فى قضية بحكمه قصيرة تنطبق على مادة من مواد القانون الجنائى فمنها :

ـ لا يقاضى الميت فإن ماسكب لا يمكن أن يغرف .

ـ ينبح الكلب حيث يأكل : (اللص يجلد حيث سرق).

ـ شاهد لا يخيف وعين لا تؤكد : (شاهد لا يكفى ، وما رأته عين واحدة لا يمكن إقامة الدليل عليه) .

ـ كما يمكن السماك أن يصطاد الحية البرية ، كذلك يمكن من يبحث عن مال غيره أن يضيع ماله .

ـ يؤذى الشر فاعله كما يؤذى حد السيف جرابه .

ـ لاتلعب مع الطفل فإنه يخزك بالعصا .

ـ كما أن الخشبة لا تحترق وحدها ، كذلك الإنسان لايحكم وحده : (واحد لا يحترق ، واحد لا يحكم) .

* * *

هذه هى أهم مناحى الأدب الأمهرى الشعبى . بقى نوع آخر وهو القصص . وقد اتجه الأحباش فى قصصهم اتجاها غير الاتجاه فى قصص الشاطر حسن والغول ، إلى آخر ما هو معروف عندنا ؛ فقد أولعوا بقصص الحيوان وفضلوه على

غيره ؛ إذ أن المجال فيه واسع لتوجيه انتقاداتهم وهم فى مأمن من السلطان . إلا أن القَصص بوجه عام قليل فى الأدب الأمهرى ولو أنه تطور تطوراً محسوساً فى أدب الجالا الشعبي ، وهو يذكرنا — إلى حد ما — بقصص أيزوب وابن المقفع ولافونتين. وإليك مثالا من هذا القصص فى أدب الجالا :

الضبع وابن أوى :

« فى يوم من الأيام التقى ضبع وابن آوى فى غابة . فقبض الضبع على ابن آوى ثم قال له : إما أن تحضر لى ماء وإما أن تهيىء لى مكاناً للراحة . فقال له ابن آوى وهو يرتعد من الخوف : لو كنت رجلا لما جسرت على معاملتى بهذا الشكل السيئ . فسأله الضبع قائلا : ما هو الرجل ؟ فأجاب : إذا أردت فتعال معى أدلك على الرجل . وبينما هما يسيران مرّا على رجل مسنّ ، فسأله الضبع قائلا : أهذا هو الرجل ؟ فقال ابن آوى لا ، هذا كان رجلا ، وهو الآن ليس برجل . فاستمرا فى السير حتى لقيا صبيا ، فسأله الضبع : هل هذا هو الرجل ؟ فأجاب ابن آوى لا ، هذا سيصير

رجلا . وبينما هما فى طريقهما مرّا بشاب فى يده بندقية ، فسأله الضبع هل هذا هو الرجل ؟ فاجاب ابن آوى قائلا : هذا هو رجل حقا ، إذا كنت شجاعاً فاقبض عليه . فذهب الضبع لينقض عليه . فاطلق الرجل رصاصة أصابت أذنه ، فصدق الضبع حينئذ ابن آوى وفرك أذنه ثم ولى هارباً » .

العادات والأخلاق :

وجدتُ الحبشة كغيرها من الأمم الشرقية متمسكة بعاداتها القديمة محافظة على تراثها وتقاليدها أكثر مما نحن عليه . ولم أكن أتوقع أن أرى هذه التقاليد قد تغلغلت فى جميع نواحى الحياة الحبشية حتى أصبحت قوانين يصعب التخلص منها . فتجد أهل الميت يشيعون النعش رجالا ونساء وقد كشفت النساء عن صدورهن وأخذن فى الولولة والعويل وضرب الصدور إلى أن يوارى فى التراب ، ويقيمون لذكراه الولائم ويقدمون الخمر بكثرة فى الأيام الثلاثة الأولى ثم السابع والرابع عشر ، وهكذا كل أسبوع إلى الأربعين ثم السنة ثم فى تمام السنة السابعة . وكذلك يولمون ويقدمون الخمر فى



أمرأة من الجالا تحمل طفلها

أفراحهم وفى المناسبات المختلفة كالولادة والتعميد . ونظام « النقوط » موجود عندهم . ولهم مراسيم فى الضيافة طويلة ، فهم يقدمون الحمر والخبز ثم يقدمون القهوة بالملح ثلاث مرات ، بعد أن تغلى فى كل مرة .

أما العلاقات بين الطبقات المختلفة مثل علاقة الخادم بسيده أو الرجل بامرأته أو الابن بأبيه ، فتراعى فيها تقاليد مختلفة معقدة فى التحية والمجاملة ولغة الحديث والملبس وما يصح عمله وما لا يصح . وهم يحيون عادة بالانحناء ثلاث مرات مع تبادل السلامات والتحيات . ويرفع الرجل قبعته عند التحية ، وقد يتبع التحية تقبيل الوجنات ويفعلون ذلك بطريقة سريعة عجيبة .

ومركبهم البغـــال لأن البغل هو الحيوان الوحيد الذى يمكنه أن يتحمل مشاق الطرق الجبلية ووعورتها ثم هولا يجفل ولا يتعب بسرعة ، وله حاسة غريبة فى جس الأرض بحافره حتى يقدر لرجله قبل الخطو موضعها . ولركوب البغال آداب ، منها أن يسيرخدم الراكب وأهله فى ركابه، فيمكن معرفة قدر الراكب من عدد الذين يتبعونه . فإذا تقابل راكب البغل مع

راكب آخر أعلى من طبقته وجب أن يترجل ليسلم عليه .

وهكذا تجد التمسك بالعادات والآداب متغلغلا فى نواحى كثيرة من حياتهم .

والشعب الحبشى مرح جداً كثير الغناء ، وقلما تجد رجلا أو امرأة لا توقع على القيثارة . وهم أكثر الشعوب حبا لشرب الخمر ، يشربونها عوضاً عن الماء . ويقولون فى أمثالهم : « الماء للضفدع » أو « الماء للطفل والقرد » . وهم يصنعون الخمر من الشهد ويسمى « التدچ » . ونوع آخر رخيص يصنع من الشعير ويسمى « الطلا » ، ولكنهم يحبون العرق أيضاً ولا يكرهون الكونياك .

ويظهر أنهم لجأوا إلى شرب الخمر عند ما وجدوا أن الماء لا يصلح للشراب طوال مدة الجفاف (من اكتوبر إلى فبراير) .

والحبشى قوى الأعصاب هادىء المزاج ، يتكلم بصوت خافت ، لا يحرك يديه عند الكلام . والشعب فى جملته جم الأدب كثير الوقار والاعتزاز بالنفس .

وهو أكثر الشعوب تحفظاً فى الكلام ، لا تجد فى لغتهم لفظة « لا » فهم يسوفون كل شىء بقولهم نعم غداً « إيشّى ناجا » وغد لا يأتى . وبلغ بهم التحفظ أنك لا تسأل أحدهم عن شىء إلا وجدت جوابه خالصاً : لا أدرى « إينچا » وهى لفظة تسلمك من العواقب . ويقولون فى أمثالهم :

« ليس أثقل من حَبّ الأدچا ، ولا أضر من عشب المندچا ، إلا قولك إينچا » . وإن التحفظ فى الكلام فيما بينهم أمر معروف فما بالك بالتحفظ من الأجنبى ، هذا التحفظ الذى تأصل فى أخلاقهم وجرى فى عروقهم حتى ظهر أثره فى عصورهم التاريخية . ولعل هذا التحفظ من الأجانب أحد الأسباب التى حافظت على استقلالهم وحمتهم من مطامع الإستعمار .

أما الحالة الاجتماعية عند المسيحيين هناك فهى تدعو إلى الالتفات ، إذ أن عدم الطلاق فى المسيحية الأرثوذكسية جعلهم ـ على ما يظهر لى ـ يهابون الزواج . فزواج الكنيسة قليل ولكنهم استعاضوا عنه بالزواج العرفى والتزاماته بسيطة مما حملهم على الإكثار من الزواج . ونتج من هذا تحلل وعدم استقرار

فى الحياة العائلية ، فإنك تجد فى المنزل الواحد عدة أطفال لآباء وأمهات مختلفين ، ومع ذلك لم ألاحظ اختلافاً فى أمر النفقة عليهم ، مما يدل على أنهم اعتادوا هذا الوضع وهيئوا نفوسهم لقبوله والتغلب على مشاكله . وإننا إذ نلاحظ فى حياتهم الإجتماعيه أثر حضارة قديمة وتقاليد متوارثه منذ أجيال ، نلاحظ أيضاً أن هذه الحضارة قد اقتصرت على نواحى دون أخرى . فإذا أخذنا مأكلهم مثلا لذلك وجدناه — على خلاف ما فى بعض البلاد الشرقية الأخرى — بسيطاً لا تعقيد فيه بل أقول لا حضارة فيه . ويذكرنى هذا بوليمة قد دعوت إليها فى برلين أستاذ التاريخ القديم بجامعتها ، وشاعراً من شعراء الألمان المعروفين ، وكانت قائمة الطعام تحتوى على أرز بالكبد والصنوبر وباذنجان مسقعة وغير ذلك . وبعد الأكل التفت الشاعر إلى أستاذ التاريخ وقال له : « إن ما تريد أن تثبته عن حضارة مصر القديمة من آثارها وأدبها لا يساوى شيئاً إلى جانب ما يمكنك إثباته من ألوان الطعام الموجودة فى مصر اليوم والتى تدل على ما خلفته الحضارة على الأجيال من أثر فى الإتقان والتى تطور معها الطعام حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن » .

ومع أن فى هذا بعض المبالغة فإن مما لا شك فيه أن التفنن فى طهى الطعام ما هو الا نتيجة من نتائج الحضارة .

لا يمكننا أن نحكم على جميع عناصر الشعب الحبشى حكماً شاملا ، فإننا نقصد هنا خاصة الأجناس السامية التى هى أكثر الأجناس هناك تحضراً .

وقد يظهر لنا أحياناً حكم القبائل بعضها على بعض من الأمثال السائرة ، فيقول الأمهرى عن قبيلة الأجو : « لشبان الأجو تسعة قلوب يخفون ثمانية ويظهرون واحداً » . ويقولون عن الجالا « صداقة الجالا كاللحم المعلق لا بد أن يجف » . أو « أمانة الكلب والجالا لا تدوم ». والجالا قبيلة كبيرة ، ومن أظهر عاداتها الزار وقد أخذته عنهم القبائل السامية ثم انتقل إلينا . وكلمة « زار » معناها الروح النجس ، إلا أن الزار هناك لا يقتصر على النساء بل إن الرجال كثيراً ما يؤلفون حلقات الزار . واشتهرت نساؤهم بتصفيف شعورهن وضفرها جدائل صغيرة ، على حين اشتهرت نساء الأمهرا بترك شعورهن تنمو إلى أعلى ، ثم يدهن شعورهن بالسمن لتقيهن حرارة الشمس . وقد سمعت قصة طريفة تدل على أظهر ما فى أخلاق

أهالى المقاطعات الثمان القديمة من خصائص فى أتيوبيا :

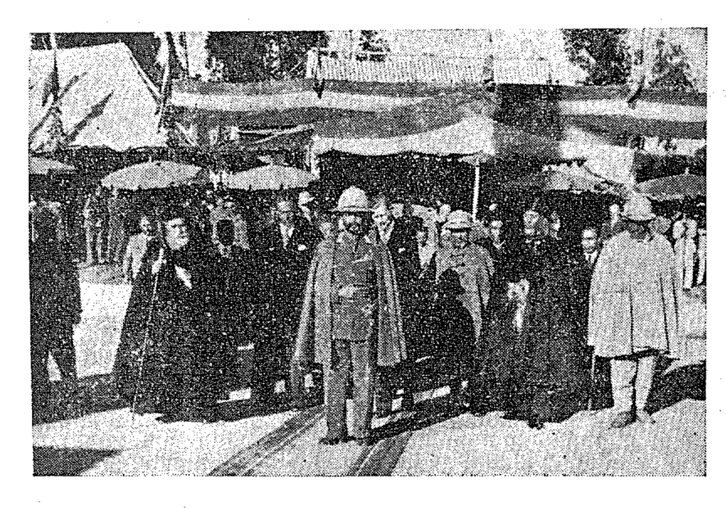
« أتى من أورشليم إلى أتيوبيا ثمانية أشخاص : الحماقة وصلابة الرأى والأنفة والحضارة والشجاعة والأمانة والبساطة والسياسة . فلما وصلوا إلى بلاد التيجرى قالت الحماقة : وجدت بلدى وسأستقر به . ولما وصلوا بلاد « سمين » قالت صلابة الرأى :قد وجدت مكانى وسأمكث به . ولما وصلوا بلاد « وجارا» قالت الأنفة : قد وصلت إلى أملاكى وسأعيش فيها. ولما وصلت الحضارة إلى بلاد جوندار قالت : يا إخوانى وجدت معسكرى وسأمكث فيه . وسار الأربعة الباقون فلما وصلوا إلى بلاد « بيجامدر » قالت الشجاعة : سأستقر هنا فقد أعجبنى المكان . ولما بلغوا « دبر تابور » وقفت الأمانة على قمة الجبل ونظرت إلى بلاد جو چام وقالت : أستأذن منكن لأبحر إلى وطنى . وتابعت الإخيرتان السير إلى بلاد أمهرا . فقالت البساطة لأختها : سأقيم هنا ثم تركتها ، فسارت السياسة إلى أن استقرت بمقاطعة شوا وحكمت هناك » .

الدين :

مشكلة من مشكلات الشرق إلا أنه فى الحبشة لا يعد من المشكلات ؛ فقد أسلفت القول بأن سياسة الحبشة قائمة منذ القدم على الجنس ، لذلك تركت للأديان حريتها إلا فيما ندر ، فهى من البلاد القلائل التى ترتع فيها الوثنية إلى جانب المسيحية والإسلام . والوثنيون هناك يعبدون السماء ويذبحون الذبائح على قمم الجبال ويعتقدون أن الشمس هى عين الإله ، ثم يؤمنون بأن هناك عدداً من الأرواح تسكن الأشجار أو الأنهار وهم يقدسونها ويقدمون لها النذور . وكل خلاف ينشأ فى يوم من الأيام بين أهل الأديان المختلفة إنما مصدره الجنس لا الدين فى الحقيقة . وليس معنى هذا أنهم لا يهتمون بدينهم ، بل إننا نجد المسلم يتمسك بدينه كما نجد المسيحى متمسكاً بدينه أيضاً ، ولكننا لا نجد تعصباً من دين ضد دين . وأظهر ما فى التمسك من جانب المسلمين أو المسيحيين هو التمسك بالطقوس إلى حد يدعو إلى التعجب . والواقع أن الأزهر كان يمكنه أن يؤدى رسالته على وجه أكمل

فى تلك البلاد لتفقيه أهلها فى الدين إذا وجهت العناية الكافية لذلك . وإن العدد القليل الذى يدرس فى فى رواق الجبرتى والذى لا يتم معظمه دراساته لا يكفى لسد حاجة البلاد ، مع أنهم يتلقفونهم فى شغف لشغل وظائف القضاء والشرع . كما أن الكنيسة المصرية قد قصرت فى أداء واجبها من ناحية التعليم الدينى منذ العصور القديمة . فإن فهم الدين على حقيقته يساعد كثيراً بل هو أساس لفهم الحضارة وقبولها فى مثل هذه البلاد .

ولعل تحفظ الأحباش نحو الأجانب جعلهم يشكون فى كل إرسالية تبشيرية . وقد حدث مراراً فى تاريخ الحبشة منذ القرن السادس عشر أن طرد الأحباش رجال الأرساليات الكاثوليكية أو البروتستانتية كلما أحسوا منهم تدخلا سياسيا ، ولذلك فقد تعوداو مراقبة المبشرين . وقد أصدرت الحكومة الأتيوبية أخيراً قانوناً يحدد مناطق نشاط المبشرين حتى تتمكن من مراقبة حركة التبشير فى الحبشة . والواقع أن المصريين هم الوحيدون القادرون على مساعدة الأحباش لتفقيههم فى دينهم المسيحى أو الإسلامى ؛ لأن الأحباش يأمنون جانبهم بعد ما



جلالة الامبراطور والى جانبه المطران القبطى يتقدم لوضع الحجر الأساسى
لنصب تذكارى فى ميدان الشهداء بأديس أبابا

خبروهم وعرفوا أنهم أبعد الناس عن المطامع السياسية أو التعرض للشؤون الداخلية .

الكنيسة :

والكلام على الدين يسوقنا إلى الكلام على الكنيسة وخاصة أن مشكلة الكنيسة قد شغلت الناس مدة فى هذه الأيام . والواقع أنه ليست هنالك مشكلة بل هى مسألة أثارها الأحباش بعد استرداد أتيوبيا من يد الطليان . فالمطران القبطى فى الحبشة يتمتع بمركز ممتاز حافظ عليه فى جميع العصور التاريخية . وهو بمجرد وصوله يأخذ الجنسية الأتيوبية ، ولم نسمع فى التاريخ أن أحداً من المطارنة تدخل فى سياسة البلد الداخلية أو كان له مطمع مالى أو سياسى ، وإن حدث أحياناً كان رائده فى ذلك مصلحة الأحباش . مثال ذلك ما حدث عند ما خلع المطران السابق الإمبراطور « ليج ياسو » عام ١٩١٧ وولى مكانه الإمبراطورة زوديتو. أما المطران الحالى فله مركز خاص فى نفوس الإمبراطور والأحباش معاً ، لأنه أنقذ كنيستهم عند ما رفض انفصالها عن الكنيسة المصرية تحت

وعود الطليان ثم تهديدهم . وقد اضطر الطليان أمام هذا الموقف المشرف أن يتحملوا تبعة فصل الكنيسة الحبشية عن المصرية فصلا تاماً ، فأصدروا قانوناً بفصلها ونصبوا عليها بطريركاً من أهلها . ولما عاد الامبراطور أعاد للكنيسة وضعها السابق .

إذن ما هى المسألة التى أثارها الأحباش ولماذا ؟ رأى الأحباش فى القرن الحالى ما تقوم به الإرساليات الأجنبية من جهود فى الحبشة من إنشاء المدارس إلى فتح المستشفيات إلى غير ذلك ، ثم إذا هم قارنوا ذلك بما تقوم به كنيستهم للمساهمة فى التعليم والنهوض بمستوى الشعب أو ما تتخذه من وسائل للحد من انتشار التبشير ، وجدوا أن ما لهم فى ذلك جهداً لا يذكر . وكذلك أحيا فيهم الضغط الإيطالى النزعة الاستقلالية أو بتعبير أصح النزعة القومية . فبدءوا ينظرون بعين النقد إلى كنيستهم . وقد دافع رجال الدين عن أنفسهم بأن ركزوا كل لومهم فى المطران القبطى الذى يمثل الكنيسة المصرية هناك ، وظنوا أنهم إن هم طالبوا الكنيسة المصرية بأن تسمح لهم بتعيين مطران منهم وأساقفة من بينهم أمكنهم بذلك أن يستقلوا بكنيستهم استقلالا ذاتياً تحت إشراف الكنيسة المصرية ،

ويؤهلهم هذا أن يرتقوا بكنيستهم إلى مصاف الكنائس الأخرى حتى يمكنهم أن يدرءوا عنها الخطر . ومن الخطأ أن نفهم أنهم أرادوا أن يستقلوا بكنيستهم استقلالا تاما ، بل كان من الممكن أن يبقى الإمبراطور الكنيسة عند عودته على حالتها الاستقلالية كما كانت أيام الاحتلال ولكنه لم يفعل . زد على ذلك أنهم خطوا خطوة تدل على مقدار تمسكهم بالكنيسة المصرية حينما أنشئوا حديثاً كلية لاهوتية كبيرة لتخريج القساوسة وتفقيه رجال الدين فاختاروا لها المدرسين من الأقباط والأحباش .

وقد سمعت بعض أبيات من الشعر يتداولها الناس لشاعرهم « كيدانا ولد كفلى » تدل على ما يشعر به الاحباش نحو هذه المسألة :

« الأقباط مختبطون ، متى يجتمعون ليقرروا ؟
لا يصنعون شيئاً ، ففخرهم بالاسم فقط .
فى بلادنا ألقاب عظيمة لرجال الدين
هى ألقاب مطارنة ، ليست لصعاليك
لا حرية لهم فى بلادهم كغيرهم من رجال الدين .
لا يمكن أن نقول بكمال وقارنا وتمام حريتنا :

فالسوريون والأرمن يختارون ويرسمون لهم بطريركاً ومطراناً ، دون أن يكون لهم مالك .

لا يوجد فى العالم جنس آخر غير الأتيوبيين
لا يختار ولا يرسم من جنسه مطراناً » .

هذا يدل على أن كل أمانيهم هو أن تسمح لهم الكنيسة المصرية برسامة مطران من جنسهم . ولكن مما يحد من توجيههم اللوم إلى الكنيسة القبطية أن تسارع هذه إلى المساهمة فى رفع مستوى الشعب الثقافى والاجتماعى حتى تؤدى ما عليها من واجب وتعوض بعض ما فاتها فتخفف من توتر أعصابهم وتقلل من قلقهم لتتلاشى أسباب الشكوى .

وقد رأت الكنيسة القبطية أن تسوى هذه المسألة فرسمت أساقفة من الأحباش ، كما وافقت على أن يكون المطران من الأحباش. وذلك بعد وفاة المطران القبطى الحالى، وأن يقيم أحد رجال الدين من الأقباط فى الحبشة ليكون حلقة اتصال بين الكنيستين .

تكوين الدولة :

الدولة يحكمها الإمبراطور ولقبه التقليدى « الأسد القاهر من سبط يهوذا المختار من الله ملك ملوك أتيوبيا » ومع أنه لا يوجد الآن ملوك فى أتيوبيا إلا أنه لا يزال يحتفظ بلقب ملك الملوك أو الإمبراطور . أما الأسد القاهر من سبط يهوذا ، فنصه مقتبس من آية من الإنجيل (رؤيا يوحنا ٥ : ٥) ، والإشارة هنا إلى أن الملك الحالى على عرش أتيوبيا من سلالة سليمان الحكيم بن داود من سبط يهوذا وملكة سبأ كما جاء فى نص الدستور (مادة ٣) .

وقد منح الإمبراطور هيلاسلاسى الأول بلاده دستوراً فى يوليه سنة ١٩٣١ بمحض إرادته نزل فيه للشعب عن بعض حقوق السيادة التى كانت له . ويتبين من نصوص الدستور أن الحكومة الأتيوبية ملكية وراثية وشكلها نيابى ولكنها ليست برلمانية . ويتمثل شكل الحكومة النيابى فى وجود مجلسين تشريعيين مجلس شيوخ ومجلس نواب . وأعضاء الشيوخ يعينهم الإمبراطور ويختارهم من بين الأعيان الذين خدموا

الإمبراطورية مدة طويلة مثل الأمراء والوزراء والقضاة وقواد الجيش .

أما أعضاء النواب فالمفروض مبدئياً انتخابهم ، لكن نظراً إلى أن الشعب لم يصبح حتى الآن أهلا لانتخابهم بنفسه فإن أمر اختيارهم يبقى مؤقتاً من اختصاص الإمبراطور الذى يختارهم من بين الأعيان والرؤساء المحليين .

وقرارات كل من المجلسين تكون بأغلبية أصوات أعضائه على أنها لا تكون نافذة إلا بعد تصديق الإمبراطور عليها .

فالنظام الأتيوبى ليس برلمانيا بل يشبه من بعض الوجوه النظام النيابى القائم فى الولايات المتحدة . ويلاحظ أن الدستور الأتيوبى استمد نصوصه من المبادئ الدستورية الحديثة المعمول بها فى الدول المتمدينة مع مراعاة عدم تعارضها مع عادات البلاد وتقاليدها ومع ملاحظة المرحلة التى وصل إليها الشعب الأتيوبى فيما يتعلق بما يجوز منحه من حقوق وما يجوز تكليفه من واجبات . ومما تصح الإشارة إليه أن الحكومة الأتيوبية أنشأت فندقاً فى أديس أبابا تسهيلا لإقامة أعضاء البرلمان فى العاصمة لا ينزل به غيرهم .

والحكومة تنقسم إلى وزارات : وزارة القلم — الداخلية — الخارجية — المالية — التجارة والصناعة — العدل — البريد والتلغراف والتليفون — المعارف —الحرب — الزراعة — الأشغال العمومية .

ولكل من هذه الوزارات وزير أو نائب وزير وقد يجمع بين الاثنين ، ومدير عام وسكرتير عام . وأخيراً أنشىء مركز رئيس وزراء . ومجلس الوزراء يرأسه الإمبراطور أو من ينيبه عنه . وقد يشرف الإمبراطور بنفسه على بعض الوزارات فلا يكون لها وزير. مثل وزارة الخارجية ووزارة المعارف الآن .

والوزراء مسئولون أمام الإمبراطور يتلقون الأوامر منه ، بل إن لكل وزير مقابلة أو أكثر اسبوعية يعرض فيها دقائق أمور وزارته على الإمبراطور . ولا يجوز للوزير أن يدخل مجلس النواب أو الشيوخ إلا إذا طلب منه الإمبراطور ذلك لإعطاء بيان أو للدخول فى مناقشة .

أما اختصاصات الوزارات فهى لا تختلف كثيراً عن اختصاصات الوزارات عندنا ما عدا وزارة القلم . وأهم أختصاصات وزير القلم :

١ ــ حامل أختام الإمبراطور .

٢ ــ عليه قيد مواليد ووفيات وزواج الأسرة الإمبراطورية .

٣ ــ قيد أوامر الإمبراطور .

٤ ــ يحفظ جميع المعاهدات وأوراق الدولة .

٥ ــ يقدم القوانين والمشروعات ــ صلة الاتصال بين الوزراء ورئيس مجلس الوزراء ــ يوقع على جميع القوانين والمشروعات والتعيينات التى تنشر فى الجريدة الرسمية ــ العمل على تنسيق اختصاصات الوزارات ــ يقرأ تعليمات الإمبراطور إلى مجلس النواب أو الشيوخ ، وكذلك يلقى خطاب العرش إن لم يلقه الإمبراطور ــ يشرف على إدارة البروباجندة والاستعلامات والمطابع .

٦ ــ لوزير القلم الحق أن يتعامل مباشرة مع جميع الموظفين فى الإمبراطورية . وقد كان لكل وزارة مستشار بريطانى بحكم المعاهدة البريطانية الأثيوبية لسنة ١٩٤١ إلا أنه لم ينص على ذلك فى معاهدة ١٩٤٤ فلم يبق منهم أحد الآن .

التعليم :

كان أول تنظيم لشؤون التعليم فى الحبشة عام ١٩٠٦ حينما استدعى الإمبراطور منيليك الثانى بمدرسين من المصريين للقيام بأعباء التعليم هناك ففتحوا مدرسة منيليك فى أديس أبابا وقسموها قسمين : إنجليزياً ، وفرنسيا ، وظل التدريس فى هذه المدرسة على أيدى مدرسين مصريين إلى وقت دخول الطليان . وتخرج على يدهم معظم رجال الدولة المعاصرين ، وقد تولوا التدريس أيضاً فى مدينة هرر . ثم توالى فتح المدارس، ففتح الإمبراطور الحالى (وكان حينئذ ولياً للعهد) مدرسة تحمل أسمه « تفرى مكونن » فى أديس أبابا ، ووجهت المفوضية الفرنسية اهتمامها بهذه المدرسة ، فأحضرت لها مدرسين من الفرنسيين والسوريين تولوا التدريس فيها . وكذلك فتحت مدرسة هيلاسلاسى الأول ، وتولى السوريون التدريس فيها . إلا أن هذه المدارس جميعها ، وكذلك جميع المدارس الأولية فى أتيوبيا اضطرت إلى إغلاق أبوابها فى عهد الاحتلال الإيطالى الذى وجه التعليم توجيهاً إيطالياً بحتاً .

ولم يكد الإمبراطور يعود إلى بلاده حتى وجه عنايته إلى التعليم ، وأولى وزارة المعارف رعاية خاصة . وأراد أن ينحو بالتعليم منحى قوميا على أن تكون اللغة الإنجليزية هى اللغة الأجنبية الأولى ، وطلب مساعدة المجلس البريطانى والحكومة المصرية ثم حكومة الولايات المتحدة الأمريكية . وقد فتح المجلس البريطانى معاهد فى أديس أبابا ، وهرر وجمة وديسى لتدريس اللغة الإنجليزية .

كما أنشأ فى سنة ١٩٤٦ مدرسة أولية ثانوية باسم « ونجت » يكون التعليم فيها بالإنجليزية

أما الحكومة المصرية فقد لبت طلب الحكومة الأتيوبية ، إلا أن عدد المدرسين فى المدارس لا يزال قليلا لا يفى بالحاجة . أما المدرسون الأحباش فإنهم يحتاجون إلى توجيه فنى ، وقد بدأ المجلس البريطانى وحكومة الولايات المتحدة والحكومة الأتيوبية فى إرسال بعثات من الطلبة إلى الخارج حتى يسدّوا هذا النقص .

وقد أخذت الدول تحذو حذو بريطانيا وتسعى كل منها فى إنشاء مدارس هناك توطئة لنشر ثقافتها . وقد فتحت مدارس الليسيه فرانسيه فرعاً لها فى أديس أبابا سنة ١٩٤٨ تبغى من

وراثه نشر الثقافة الفرنسية . ونحن ننتظر اليوم الذى نرى فيه حكومتنا تنشئ مدرسة ثانوية هناك تساعد على نشر الثقافة المصرية ، وتعمل على تقوية الصلات بين البلدين .

أما الطالب الحبشى فهو على قدر من الذكاء ، وهو مثال للمثابرة والاجتهاد وإطاعة المدرس ، مغرم باللغات والحساب ولا يرى فائدة ملموسة فى دراسة المواد الاجتماعية ، وقدرته فى العمليات الحسابية لاتبارى إلا أنه لا يحسن التطبيق .

والتعليم كله بالمجان ، بل تصرف للطلبة الكتب والأدوات المدرسية دون مقابل ، وفى بعض المدارس تتكفل الوزارة بمأكلهم وملبسهم .

والاتجاه بسياسة التعليم الآن يختلف عما كان عليه من قبل . فبعد أن كان تقسيم المدارس يرجع إلى جنسيات المدرسين أصبحت المدارس فى أديس أبابا خاصة ، فمدرسة لأولاد الملاك الكبار (الأعيان) ، ومدرسة لأولاد القتلى من الأبطال ، ومدرسة لأولاد قتلى الحرب ، ومدرسة لعامة الشعب وهكذا .

ومدة الدراسة فى المدارس الأولية ست سنوات ، يدرس

بالأمهرية فقط فى السنوات الثلاث الأولى وبالإنجليزية (بقدر ما يسمح به عدد المدرسين) فى الثلاث السنوات التالية.

وفى أديس أبابا مدرسة ثانوية واحدة تابعة لوزارة المعارف تحمل أسم الإمبراطور يدخلها الممتازون من الناجحين فى هذه المدارس ، ولكن عدد الأماكن محدود إذ أنها داخلية بالمجان والتعليم فيها باللغة الإنجليزية . وهناك مدرستان أوليتان فتحت فيهما فصول للدراسة الثانوية . والمدارس المتوسطة ثلاث : واحدة للصناعات ، وأخرى للتجارة ، وثالثة للمعلمين . وليست هناك إلى الآن برامج عامة معمول بها ، وقد قصد إلى ذلك حتى لا يتقيد المدرس الأجنبى ببرنامج وحتى تتاح له الفرصة ليبذل كل ما فى وسعه لفائدة الطلبة . وكذلك يعطى مدير المدرسة حرية تامة فى التصرف فى أمور مدرسته ، وبذلك تتاح له الفرصة أيضاً لإظهار شخصيته .

وللوزارة مدارس فى عواصم المقاطعات والبلاد الكبيرة فيها . منها مدارس فى الجهات الإسلامية اعتبرت لغتها الأولى اللغة العربية ، كما عين لها المدرسون لتدريس الدين الإسلامى والعبادات . أما الإرساليات التبشيرية فلها مدارس فى الجهات

التى سمحت لها الحكومة بمزاولة عملها فيها .

الصحافة :

يرجع تاريخ الصحافة فى الحبشة إلى عام ١٩٠١ حين أحضر أحد الأجانب مطبعة صغيرة قوامها حروف لاتينية وأصدر جريدة بالفرنسية عام ١٩٠٣ فى مدينة هرر ، ولم تكن جريدة بالمعنى المعروف بل صحيفة توزع على المشتركين ثم حولت سنة ١٩٠٥ إلى مجلة شهرية . وفى سنة ١٩٠٩ زودت بحروف لاتينية كافية واستقرت إدارتها فى مدينة ديريداوه ، ثم اختفت هذه المجلة فى أوائل الحرب العالمية الأولى .

وفى عام ١٩٠٢ ظهرت مجلة « أئمرو » باللغة الأمهرية ، ولم تكن المطابع الحبشية قد عرفت بعد فى الحبشة فصار رئيس تحريرها يكتب ٢٤ نسخة يوزعها أسبوعيا ، ثم أمكنه أن يرفع عدد النسخ إلى ٢٠٠ بالبالوظه ، وفى سنة ١٩٠٦ أشرفت عليها الحكومة . وقد احتجبت عام ١٩١٤ وعام ١٩١٦ ، ولما كان عام ١٩٢٤ تعهدتها الحكومة الأثيوبية بعد أن أحضرت مطبعة سنة ١٩٢٣ واستمرت فى الظهور أسبوعيا

وفى هذه السنة أيضاً خرجت الجريدة الرسمية « برهان ناسلام » باللغة الأمهرية .

وفى عام ١٩١٣ ظهرت جريدة باللغة الفرنسية مرتين فى الأسبوع وكانت تطبع ٧٠٠ نسخة . وفى عام ١٩٢٨ ظهرت مجلة شهرية كانت تطبع بعدة لغات ٢٠٠٠ نسخة ، واختفت سنة ١٩٣٢ ، وظهرت مجلة تجارية باللغة الفرنسية عام ١٩٣٢ وهناك مجلة يونانية كانت تصدر منذ ١٩٢٦ وأدخلت عليها بعض التعديلات سنة ١٩٣٣ ثم احتجبت بعد ذلك بقليل . وقد أخرج الحزب الفاشستى فى أتيوبيا مجلة باللغة الإيطالية عام ١٩٣٣ .

وفى عام ١٩٣٤ ظهرت مجلة شهرية بالأمهرية «كساتى برهان» وكذلك مجلة أخرى بالأمهرية اسمها « أطبيا كوكب » .

وكانت فى أديس أبابا حتى سنة ١٩٣٤ سبع مطابع .

هذه هى أهم المجلات والجرائد منذ ظهورها إلى عهد الاحتلال الإيطالى ، وهى فى جملتها متنوعة الأغراض حرة فى تحريرها ، ما عدا إشراف الحكومة عليها من الناحية السياسية . فلما جاء الطليان وقفت جميع هذه الصحف عن الظهور . ثم غمر

الطليان أتيوبيا بسيل من الجرائد والمجلات لا تتفق مع مستوى الشعب أو تعليمه . وإليك ما أخرجته الحكومة الإيطالية مدة الاحتلال : كان يطبع فى أتيوبيا ١٠ مجلات رسمية باللغة الإيطالية — ١٠ جرائد متنوعة باللغة الإيطالية — ٤ جرائد باللغة الأمهرية — جريدة واحدة باللغة العربية . أضف إلى هـذا ٣٥ مجلة أخرى تتعلق بشؤون أتيوبيا كانوا يطبعونها خارج أتيوبيا . وإنى أسائل نفسى هل يمكن أن يفيد هذا السيل من الجرائد والمجلات قطراً يحتاج إلى تعلم القراءة قبل كل شىء ؟ وهل يمكن للصحافة أن تقوم بتأدية رسالتها الحقيقية على هذا الوجه ؟ .

* * *

عند عودة الإمبراطور إلى بلاده أخذت الصحافة شكلا غير الذى كانت عليه قبل الاحتلال . فقد أنشئت إدارة البروباجندة والاستعلامات فتولت نشر مجلات شهرية وجرائد أسبوعية . فهناك مجلة بالأمهرية ، وأخرى بالإنجليزية . وأخيراً صدرت مجلة تجارية صناعية زراعية بالإنجليزية . وتصدر الجريدة الرسمية « نجاريت جازيتا » وهى شهرية باللغتين

الأمهرية والإنجليزية . أما الجرائد الأسبوعية فتصدر واحدة بالأمهرية ، وأخرى بالإنجليزية ، وثالثة بالعربية وبالأمهرية ، وليست الأمهرية ترجمة للعربية. وفى أتيوبيا ثلاث مطابع : اثنتان حكوميتان وثالثة خاصة . وهذه المجلات والجرائد حكومية ، محرروها موظفون فى إدارة البروباجندة والاستعلامات . وهناك جريدة أسبوعية ظهرت شبه حكومية أصدرها اتحاد أرتريا أتيوبيا ، وهو الاتحاد الذى تكون فى أتيربيا للمطالبة بضم أريتريا إليها .

الحالة الاقتصادية

التجارة :

يحتقر الحبشى بطبيعته الاشتغال بالتجارة ، لذلك كانت التجارة قبل الاحتـــلال الإيطالى فى يد الأجانب ، والأجانب هم اليونان الذين تجدهم منتشرين فى جميع أنحاء الإمبراطورية من أزمنة قديمة لا يمكن تحديد تاريخها . فإن أول ما وصلنا عن المملكة الحبشية فى القرن الرابع الميلادى يدل على وجود جاليات يونانية على شواطئ المملكة . وهناك جالية كبيرة من الأرمن تسكن العواصم عادة ومعظمها يتجنس بالجنسية الأتيوبية . وإلى جانب هؤلاء طائفة من الهنود تحتكر سوق المنسوجات تقريباً . أما العرب ، أى عرب اليمن وحضرموت ، هم أكثر الأجانب عدداً وأعزهم جاهاً . والمصريون لا يزيد عددهم هناك على الخمسين وقلما نجد منهم من يشتغل بالتجارة ومما يجدر ذكره أن أكثر الأجانب تزاوجاً من الأحباش هم

اليونان فالأرمن ولعل أصح وأجمل نسل رأيته من الهجين من كان من يونانى وجالا . وتوجد أيضاً جالية سورية يشتغل أفرادها بتجارة الصادارت والواردات على الأغلب وعدد أفرادها قليل .

ولما جاء الطليان لم يتغير الوضع كثيراً إذ انقلب هؤلاء التجار وسطاء بين الأحباش والطليان وجمعوا ثروات طائلة . ثم عاد الحال إلى ما كان عليه بعد رجوع الإمبراطور إلا أن الأحباش بدءوا فى الاشتغال بالتجارة ، ولكن بالرغم من مساعدة الحكومة لهم وتشجيعهم فإنها لا تستطيع بسهولة أن تغير من طبائع الناس. فهم لم يتعودوا الاتصال بالخارج لذلك تجدهم مضطرين أن يلجئوا إلى الأجنبى فى الوساطة .

وتصدر الحبشة البن والجلود والأخشاب والحبوب والشمع والمطاط والأنعام . وتستورد المنسوجات والأدوات المعدنية والآلات .

وقد بلغت صادرات الحبشة عام ١٩٣٤ مليونين من الجنيهات. وبلغت وارداتها فى نفس السنة مليونين ونصف من الجنيهات وفى سنة ١٩٤٤ بلغت صادراتها ٢,٧ مليوناً من الجنيهات وبلغت وارداتها ٤,٥ مليوناً من الجنيهات .

هذه هى الحركة الحقيقة للصادرات والواردات أما أيام الاحتلال الإيطالى فإن أساس الفكرة الاقتصادية فيها قد اختلف عما كان عليه من قبل الاحتلال ومن بعده ، إذ أن إيطاليا أرادت أن تستغل الحبشة إلى أقصى حدود الاستغلال حتى تمون إيطاليا بالمواد الأولية من جهة وحتى تخلق سوقا لتوزيع البضائع الإيطالية من جهة أخرى ،لذلك وصلت واردات الحبشة فى سنوات الاحتلال إلى أرقام لم تعهدها من قبل ، ففى سنة ١٩٣٧ فقط بلغ ما صدرته إيطاليا إلى الحبشة ٣٠ مليوناً من الجنيهات معظمها آلات وسيارات .

ويوجد فى الحبشة الآن بنك واحد وهو بنك الدولة بأديس أبابا، وبنك آخر زراعى أنشأ حديثاً وهو تابع للدولة أيضاً .

المعادن :

ظن الطليان أن الحبشة غنية بمعادنها ، وقد حملهم على هذا الظن أن الحبشة بها ذهب وبلاتين وبوتاس ثم حديد ومنجنيس ورصاص ونحاس وكبريت ، إلا أن الأبحاث الطوبوغرافية والجيولوچية والمعدنية لم تكن قد استكملت بعد .

وقد خاب ظن الطليان عند ما احتلوا الحبشة ، فقد اطلعت على تقرير كتبه جماعة من العلماء الألمان كانت قد انتدبتهم الحكومة الإيطالية فى أوائل احتلال الحبشة لدراسة الحالة من الوجهة المعدنية . وقد بين هولاء العلماء فى تقريرهم قلة الثروة المعدنية فى الحبشة وصعوبة استغلالها استغلالا اقتصادياً منتجاً ، لكنهم دللوا على قيمة ثروتها الزراعية ونصحوا بأن أى مجهود تبذله ايطاليا فى تنمية الزراعة سيعود عليها بفائدة كبيرة . وقد أخذت ايطاليا بهذه المقترحات وحولت معظم جهودها إلى ناحية الاستغلال الزراعى .

البترول :

كشف الطليان أثناء احتلالهم للحبشة عن بعض مناطق البترول فى منطقة الأوجادين ولكنها احتفظت بسرية الكشف . ولما كانت سنة ١٩٤٧ وقعت الحكومة الأتيوبية اتفاقاً مع بعض الشركات الأمريكية ، أعطت فيه هذه الشركات امتياز التنقيب عن البترول فى منطقة الأوجادين .

ولم يقع هذا الاتفاق من بعض الشركات البريطانية موقعاً حسناً فأخذت تحاول لدى الحكومة الأتيوبية لتلغى الاتفاقية مع الشركات الأمريكية ولتتولى الشركات البريطانية القيام بالتنقيب عن البترول .

وكانت من شروط المعاهدة التى أبرمت سنة ١٩٤٤ بين بريطانيا وأتيوبيا ، أن تظل الأوجادين وبعض المناطق المجاورة لها تحت الاشراف العسكرى البريطانى فتذرعت الشركات البريطانية بهذا وأخذت فى مناوشة البعثات الأمريكية التى تقوم بأبحاث أولية للكشف عن منابع البترول . وأغرت القبائل الصومالية الإسلامية التى تقطن تلك المناطق بمهاجمة الأمريكيين وعرقلت نشاط هذه البعثات حتى توقفت عن العمل حرصاً على حياة أفرادها .

وقد احتجت أمريكا رسميا على هذا وسوى الخلاف باتفاق الشركات البريطانية والأمريكية فى لندن بعدم عرقلة مجهودات التنقيب عن البترول . ولم تجد الحكومة البريطانية ما يبرر بقاء منطقة الأوجادين تحت إشرافها العسكرى ، فسلمت هذه المنطقة إلى الحكومة الأتيوبية وطلبت من جلالة الامبراطور أن يصدر

عفواً شاملا عن القبائل التى كانت تناوئ السلطات الأتيوبية والشركات الأمريكية بإغراء بريطانيا . وقد أصدر جلالته عفواً شاملا عنهم وسلمت لهم جوازات سفر أتيوبية بدلا من الجوازات البريطانية التى كانوا يحملونها .

وأخذت الشركات الأمريكية فى التنقيب . وفى ١٧ من مايو سنة ١٩٤٩ أدار جلالة الإمبراطور آلة الحفر فى أول بئر للبترول تنقب عنها شركة سنكلر فى جبال « جمبورا » فى منطقة الأوجادين .

وقال مدير شركة سنكلر فى هذه المناسبة : إن العلماء أمضوا السنوات الماضية فى الدرس لاختيار أصلح الأماكن للتنقيب والحفر وقد وقع اختيارهم على هذا المكان . وأنه واثق من أن البحوث العلمية التى ساعدت على اختيار هذه المنطقة ستأتى بالنتيجة المرجوة . وقال إن الشركة استحضرت آلات حديثة تمكنها من الحفر على عمق خمسة آلاف متر .

ولا يمكن التكهن بمدى نجاح الشركة فى مهمتها ولا تقدير صلاحية الآبار التى قد يكشف عنها من ناحية الاستغلال .

الزراعة :

عكفت إيطاليا على دراسة المشروعات الزراعية وتنفيذها بالتدريج وأصبحت مدينة چمة – الواقعة وسط المناطق الخصبة – وسطاً زراعيا، بل كان من المتوقع أن تصير چمة أكبر مدينة فى الحبشة بعد أديس أبابا .

والهضبة الحبشية خصبة جدا، فمنطقة هرر وحوض الأومو وحوض أواش يمكنها أن تجعل من الحبشة حقلا من أوسع الحقول إنتاجاً للحبوب والبن والقطن والبذور الزيتية . والحبشة اقليم زراعى إلا أن ما توالى عليها من عصور طويلة مليئة بالحروب والاضطرابات السياسية والإدارية ، ثم عدم التفات الناس إلى الزراعة وصعوبة طرق المواصلات والنظام الزراعى الأولى الذى يعتمد على الأمطار ، كل هذا عطل الاستغلال الزراعى فى الحبشة .

وتهتم الحكومة الأتيوبية الآن بدراسة المشروعات الزراعية وبإيجاد المال اللازم لتنفيذ الأهم منها فالمهم .

وكذلك اهتمت مصر بدراسة مشروع بحيرة طانا ، وقد

أثبتت البعثات المتوالية فائدة هذا المشروع لمصر والسودان وأتيوبيا . فهو يسمح بزيادة مساحة الأراضى القابلة للزراعة فى السودان ومصر وكذلك يسبب تصريف المياه المحجوزة فى البحيرة فى الكشف عن منطقة واسعة حول البحيرة مغطاة بالغرين صالحة للزراعة .

وقد توسعت الحبشة فى زراعة البن فى حوض الأومو وخاصة فى مقاطعة كافا فى جنوب غربى الحبشة .

وكذلك توسع الطليان فى زراعة القطن لسد حاجة مصنع النسيج الذى أنشأوه فى مدينة ديريداوه وللمصريين الآن نصيب كبير فى إدارته . ونحن نعرف أن الضرائب فى المقاطعات الجنوبية الغربية من الحبشة كانت تجبى قطناً وذلك فى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر الميلادى.

وتدرس الحكومة الآن الوسائل المختلفة لاستغلال مراعى الحبشة الواسعة الخصبة .

ولعل من أنواع الحبوب الغريبة عنا حبّ « الطيف » ويسمى أيضاً الحب الحبشى ، وهو حب أسمر اللون يصنعون منه خبزهم المسمى « انچيرا » بعد تخميره طويلا ويصنعونه على طريقة

صنع خبز الذرة عندنا إلا أنه كثير الطراوة والتخمير ، وهو أقرب ما يكون منظراً إلى الإسفنج وفى طعمه مرارة .

وقد أخبرنى أحد الإخصائيين الروس هناك أنه توصل إلى التفرقة بين حوالى المائتين نوع من أنواع الحبوب فى الحبشة . وفيها أنواع لا نظير لها فى العالم تدل على أن موطنها الأصلى هناك .

وشجر القات يزرع فى منطقة هرر ، ورقه أخضر ، يعتبر من المواد المخدرة ، اعتاد العرب والصومال أن يمضغوه ، وهم يقيمون الحلقات لمضغه ويسمى شاى العرب . ويقال إنه شبيه بشجر الكولا (المعروف أيضاً باسم جوز الزنج أو بن السودان) من حيث مفعوله . والقات منتشر أيضاً فى اليمن وحضرموت ولا يتعاطاه المسيحيون بل إنهم لا يدخنون أيضاً إذ يعتبرون التبغ من الكفر ويقولون إنه خرج من بطن أريوس الكافر . وقد حاول الطليان بشتى طرق الإغراء أن يجعلوا التدخين يشيع بين الشبان الأحباش خصوصاً فى العواصم ، وقد وفقوا فى ذلك إلى حد ما .

ولعل لأخشاب الحبشة مستقبلا تجاريا إذا نظمت البحوث

المدرس أنواعها وخواص كل صنف منها وفائدته الاقتصادية
ثم العمل على تيسير وسائل نقله .

وقد أمكنني بالاستعانة بأحد الفنيين أن أحصى ٩٧ نوعاً من الخشب، منها حوالى ١٥ نوعاً يمكن استغلاله فى الأغراض الإنشائية المختلفة .

الصناعة :

يشعر الحبشى أن العمل اليدوى لا يتفق مع وقاره ، والصناعة كالتجارة عنده عمل يقوم به عنه غيره ، لذلك لا تزال الصناعات المحلية على بداوتها . وأهم هذه الصناعات : صناعة الحبال وما ينتج عنها من أنواع الأكلمة والحقائب وغيرها ، وهم يستخرجونها من ألياف أشجار تشبه شجر الموز . وصناعة النسيج بالنول منتشرة يقوم النساء بغزل القطن خيوطاً فى منازلهن ثم يرسلنها لتنسج . ويقوم بعملية النسيج رجال من الجالا فى مقاطعة شوا ورجال من اليهود الأحباش (الفلاشا) أو المسلمين فى شمال الحبشة . وعندهم صناعة قديمة هى صناعة الجلود، منها المدبوغ يصنعون السروج منه والأحذية وجلود لتغليف

المخطوطات . ويأخذون من الجلد غير المدبوغ الرق للكتابة .
وهم مع تعودهم على الورق منذ القرن التاسع عشر فإنهم لا يزالون
إلى اليوم يكتبون كتبهم الدينية على الرق . ويصنعون من جلود
البقر سيوراً للأسرة، فإن الأحباش ينامون عادة على أسرة .
ويجدر بنا هنا أن نذكر صناعة الفراء التى تتخذ من جلود
الحيوانات كالنمر والأسد والفهد والمرموط والسرعوب والماعز البرى
وغيرها ، تصنع منها معاطف للسيدات . ومنها جلود القرود
(خاصة نوع الجوريزا وهو طويل الشعر لونه أسود قاتم يحوطه
شعر أبيض) ويصنعون منها البسط . ولهم فى ذلك طابع خاص .

وصناعة القش معروفة عندهم بل لعلها أقدم الصناعات فى
الحبشة، تظهر فى حبكتها ورسومها ما يميزهم فيها عن غيرهم. وقد
أتقنت قبائل الجالا هذه الصناعة إلى حد يستدعى الإعجاب .
وهم يصنعون من القصب أيضاً كراسى ومناضد مختلفة الأحجام
(وهو مثل القصب الذى تصنع منه فى مصر سلات الملابس
المستعملة وهو القصب الذى يستعمل فى صيد السمك) .

ومستوى معيشة الحبشى فى منزله على جانب من الرقى ، يرجع
ذلك إلى استخدامه الخامات الأولية المتوفرة فى بلاده لصنع

حاجياته الضرورية . فالداخل فى البيت الحبشى البسيط يرى الأسرة والكراسى والمناضد والبسط كلها من خامات البلاد . كذلك تفننوا فى صناعة ما يحتاجون إليه من كؤوس وكوب من قرون الحيوان والعاج .

ولعل الصياغة هى إحدى الحرف التى اعتمدت على الدين وحافظت على تقاليدها ومميزاتها فقد برع الأحباش منذ القدم فى صياغة الفضة أو النحاس الممزوج بالفضة فصنعوا منه أشكالا وأحجاماً مختلفة للصلبان وأدوات الكنيسة والحلى ومساويك الأذن وغير ذلك .

∴

أما الصناعات الكبيرة فقد كون الطليان عند احتلالهم شركات استغلالية منها شركات للقطن — للألياف — للبذور والثمار الزيتية — للألبان ومنتجاتها — للحوم — للأسمنت — للصياغة — للجلود — للوقود الخشبى — للمعادن — للزهور — للمفرقعات — للجعة .

وقد بدأ الإنتاج فعلا فى هذه الشركات أيام الاحتلال الإيطالى، وهى الآن جميعها تحت يد الحكومة الأتيوبية تستغل بعضها ولا يزال البعض الآخر فى حاجة إلى خبراء وآلات ومال .

علاقتنا بالحبشة

كنت بحكم مركزى أتشرف بمقابلة الإمبراطور وقد كان حديث جلالته فى كل مرة يجر إلى الكلام عن مصر وعلاقتها بأتيوبيا . وإنى لأذكر آخر مقابلة تشرفت بها وقد أخذ جلالته يتكلم عن تلك العلاقات بإسهاب وجاء فى حديثه : « إن مصر جارة لنا عزيزة تربطنا بها علاقات قديمة وهى أول البلاد التى نلجأ إليها لمساعدتنا وكانت دائماً تلبى نداءنا دون تردد ، لأن مصر كما أعتقد تشعر بأن لنا عليها حق الأخوة لا حق الجيرة فحسب . وإننا مهما توجهنا إلى غيرها من الدول لمساعدتنا فهو حدث عارض إذ أن وجهتنا الأخيرة هى مصر دائماً » .

هذا حديث يحمل بين كلماته تاريخاً وسياسة .

والواقع أننا فى حالة تمكننا من مساعدة أتيوبيا مساعدة تعود عليها وعلينا بالفائدة .

فالمصريون ساهموا منذ سنة ١٩٠٦ فى التعليم هناك مساهمة منتجة ، وإن أتيوبيا تبذل الآن مجهوداً كبيراً للتوسع فى التعليم أظننا

أصلح الناس على معاونتها فى تنفيذ برامجه وتحمل بعض العبء فى سبيل ذلك .

أما فى الزراعة فقد بينت ما يوجدهناك من أراض واسعة يحتاج استغلالها إلى إشراف فنى وخبرة زراعية ، ثم أشرت إلى ما يوجد هناك من مشروعات تحتاج فى دراستها إلى عدد كبير من فنيين وإخصائيين لتنفيذها . ويعلق الأثيوبيون أملهم فى ذلك علينا .

والصناعة — كما أسلفت — قد بدأها الطليان هناك ويتردد الأحباش فى الاستمرار فيها . إلا ما يضطرون إليه الآن فإنهم بالرغم منهم يستخدمون الفنيين من الطليان حتى تستمر المصانع فى الإنتاج . وهم فى أشد الحاجة إلى صناع من المصريين يحلون محل الطليان .

أما التجارة فإن الأحباش برحبون بالتجار المصريين لأنهم يريدون أن تكون تجارتهم مع مصر دون وسطاء ، إلا أنه مع الأسف لا يوجد فى الحبشة — على ما أعلم — إلا تاجر مصرى واحد .

تلك رغبات لمستها هناك وقد وجدت المصريين على استعداد لتلبية النداء والأمر يحتاج من ذوى الشأن إلى همة وتنظيم .



دار المعارف بمصر

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

تقدم إلى القارئ فى مختلف مراحل حياته ومتباين درجات ثقافته كل ما يحتاج إليه فى تكوين مكتبة عربية فى منزله لتساعده على الاستزادة من الثقافة والطموح إلى حياة عقلية راقية

القاهرة :
٧٠ شارع الفجالة

الإسكندرية :
٢ ميدان محمد على

س. ت ٥٢١٢١

اقرأ

- عنوان هذه السلسلة خير ما يوجه إلى الأفراد والجماعات ، بل هو خير ما وجه إلى الإنسان منذ تحضر إلى الآن.

- السلسلة الشهرية الوحيدة التى تعمل منذ أكثر من خمس سنوات على جعل الثقافة فى متناول الجميع.

- نواة صالحة لإنشاء مكتبة زهيدة الثمن كبيرة الفائدة فى كل منزل يستفيد منها الشباب والشيوخ على السواء.

- تصدرها دار المعارف بمصر فى ط
بمعاونة حضرات الدكتور طه ح
والأستاذ عباس محمود العقاد والأستا

ثمن النسخة ٥ قروش

٦٠ ملاً فى فلسطين وشرق الأردن ٦٠
٦٠ فلساً فى العراق ٦٠

